أولادنا

كنوز الملك سليمان

بقلم: عادل الغضبان



دار المعارف

كنوز الملك سليمان

أولادنا

١٣

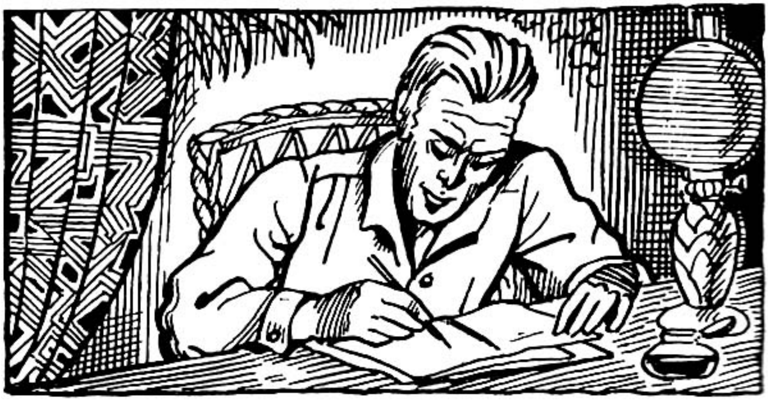
كنوز الملك سليمان

بقـلم : عادل الغضـــبان

الطبعة التاسعة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.
هاتف ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg



١

قد يكون من غرائب الأمور أن أعمِد إلى الكتابة وأنا في الخامسة والخمسين من العمر ، وما عرفت القلم قبل اليوم ولا عرفني ، فإني أبْعَدُ الناس عن الكتابة والتأليف ، فقد تركت المدرسة في سنٍّ مبكّرة ، وانصرفت إلى كسب رزقي في مستعمرة ((الكاب)) بإفريقيا الجنوبيّة . ثم كنتُ على مَدار السّنين أزاول التجارة واستغلال المناجم ، وأذهب إلى الصيد والقَنْص ، وانتفع من بيع ما أصيد وأقنِص ، ولكنْني مع ذلك كله لم أوفَّق إلى جمع ثروة تذكر إلا منذ نحو ثمانية أشهر ، فقد وقعت على ثروة ضخمة ، غير أنني قضيت في سبيل الحصول عليها مدّة سنة ونصف سنة كانت مملوءة بالمخاطر والأهوال ...

كنت قبل حوادث هذه القصّة التي سأقصّها عليكم ، قد أصِبْتُ بخسارة فادحة في تجارتي ، أعقبّها حُمّى خبيثة طرحتي في الفراش شهرين كاملين . فلما تماثلت للشِّفاء ، قرّرتُ أن أصفّي أعمالي ، وأبيع ما بقى عندي من سنِّ الفيل ، وأعود إلى لندن لأقضي فيها بقية العمر في هدوء وراحة ، وأكون قريباً من أبين الذي يدرس الطب في إحدى جامعاتها .

نفّذت ما عزمت عليه ، وركبت البحر ذات يوم إلى ميناء ((دربان)) فلفت نظري في السفينة التي ركبها رجلان أثارا فضولي .

كان الأول في نحو الثلاثين من العمر ، مديد القامة ، طويل الذّراعين، عريض المنكبَيْن ، يدلّ مظهره على القوّة والبأس كأنه عملاق من العمالقة ، وهو إلى هذا جميل القَسَمات ، أشقر الشعر واللحية ، حادّ البصر ، أنيق الإشارة ، فقدَّرتُ أنه نبيلٌ من النبلاء ، ولم يخطئ التقدير فقد عرفت فيما بعد أنه ((السير هنري كورتيس)) .

وكان الرجل الثاني بدين الجسيم ، أسمر البَشَرة ، قصير القامة ، دلّني مظهره كما دلّتني مشيته على أنه ضابط من ضباط البحرية ، وكان هو كذلك في نحو الثلاثين من عمره ، ولقد أصبت فيه الظن أيضاً ، فالرجل من ضبّاط البحرية المتقاعدين ، ويدعى الرُّبّان ((جون جود)) ، وكان حَسَنَ البِزَّة ، حليق الذّقن والشّاربين ، لا يكاد يفارق ((السير هنري)) كأنهما صديقان صدوقان ، أو رفيقان متلازمان في السفر والغاية .

ولما عرفتُ ما عرفت عن هذين الرجلين اللذين استرْعيَا فضولي ،

أخذت أطوف في أنحاء السّفينة أمتّع النظر بزرقة النظر بزرقة السماء وزُرْقة ماء البحر ، إلى أن حان موعد العشاء ،فنزلت إلى حُجْرَة الطعام ، وقادني رئيس الخدم إلى المكان المخصّص بي ، فرأيتني أجلس إلى المائدة التي جلس إليها كلٌّ من ((السير هنري كورتيس)) والرُّبّان ((جون جود)) فتبادلت وإياهما التحية ، وشرعنا تناول الطعام ونحن نسكت ، حتى قطع الرُّبَّان (جون) حبل الصمت ، فأخذ يجاذبني أطراف الحديث في موضوعات عامّة منوّعة ويطرح عليّ الأسئلة وأنا أجيبه بما أعرف وأعلم .

ولما فتح بابا الحديث عن الفيلة ، حتى سمع صوتاً ينبعث من المائدة المجاورة ويقول له صاحبه :

– لقد وقعتَ يا سيّدي على الضّالّة المنشودة ، فليس مَنْ يفيدك عن الفيلة وصيدها مثل محدّثك الصياد الماهر ((كاترمان)) !

وكان ((السير هنري كورتيس)) حتى تلك اللحظة ملتزماً الصمت ، يُرْهِفُ السّمع ولا يشاركنا في حديث من الأحاديث ، فلما طرق مِسْمعَهَ ذكر أسمى انتفض انتفاضةً ظاهرة وخرج عن صمته فوجّه إليّ الكلام وقال بلهجةٍ هادئة رزينة تتّفق وما اتّسم به من هيبةٍ ووقار :

– ((عذراً يا سيّدي ! أأنت ((آلان كاترمان))؟)) فقلت :

– ((نعم يا سيّدي أنه هو !))

فلم يُحِر العملاق جواباً ، وإنما رأيت لحيته تهتزّ ، وشفتيه تنفرجان و تنطبقان عن تمتمة خُيّل إلىّ أنه قال فيما بينه وبين نفسه ((هذا من حسن الحظ .))

فرغْنا من تناول الطعام فنهض الرّكّاب كلٌّ إلى شأنه ، ودعاني ((السير هنري كورتيس)) لأصحبه إلى مِخْدَعه فقبلت الدعوة وقَبِلَها معي الرُّبّان ((جود)) وما إن يستوي بنا المُقام في المخْدَع حتى يفتتح ((السير هنري)) الحديث ويقول :

– ((يا سيّدي ((كاترمان)) ألم تكن في مثل هذا الوقت منذ نحو سنتين في بُقْعَةٍ تسمى ((بامنجواتو)) في شمال ((الترنسفال)) ؟)).

فقلت وقد أدهشتني معرفة الرجل بأحوالي وأموري :

((هو ذاك يا سيّدى !)) فقال الرُّبّان ((جود)) مندفعاً:

– ((وكنتَ تتعاطى فيها التجارة ؟)) فقلت :

– ((نعم يا سيّدي ولكني عُدتُ منها بخسَارةٍ بالغة ! !))

فحملق ((السير هنري)) فيّ كأنه يريد أن يستشفّ من وراء نظراته جميع أسراري ثم قال :

– ((ألم تقابل في تلك البُقْعَة رجلا يسمى ((نفيل)) فقلت :

– ((أجل قابلتُه وقد بقى مُعَسْكِراً إلى جواري مدة أسبوعين ليريح فيها دوابَّة وثيرانه قبل أن يتوغَّل في مجاهل تلك البقعة ، ولقد تلقَّيْتُ منذ عدة أشهر رسالةً من أحد التجار يستوضحني فيها أمر ((نفيل)) هذا فوافيته بما أعرف عنه .)) فقال ((السير هنري)) :

– ((أعلمُ ذلك فكتابك قد أرسل إلىَّ ووفقتُ منه على أن ((نفيل)) قد توغَّل على عربة يصحَبُه فيها ثلاثة رجال من أهل البلاد هم :

سائق العربة وخادم وصيّاد اسمه ((جيم)) وأنه كان ينوي بيع العربة في آخر قرية يصل إليه ثم يستأنف السّير على قدميه إلى حيث يقصد ... ولقد ذكرتَ كذلك في رسالتك أن العربة قد بيعت ، لأنك رأيتَها بعد ستة أشهر ، في حَوْزة رجل قال لك إنه اشتراها من رجال أبيض لا يذكر أسمه ، وأن البائع قد مضى يرتاد المجاهل هو وخادمه الأسود في سيبل الصَّيد والقَنْص) فقلت :

– ((كلّ هذا صحيح !))

– ((أعتقد يا سيّد (كاترمان) أنك تجهل الدوّافع التي حَدَت بالسيد (نفيل) إلى التوغّل في بقاع الشمال ومجاهلها ، وأنك لا تعلم شيئاً عن نتائج رحلته ولا عن مصيره !)) فقلت :

– ((سمعتُ عن ذلك بعض الأقاويل ...)) فقال :

– ((إن (نفيل) هذا يا سيّدي هو شقيق !))

فراعتني هذه المفاجأة ، غير أن (السير هنري) استمر يقول :

– ((ليس لي في الحياة غيرُ هذا الشقيق الذي يصغُرني ، وكنا شقيقين متحابّين لا نفترق أبداً ، فحدث منذ سنوات أن اختلفنا على أمر من الأمور ، فأعماني الغضبُ وأغلظت له في القول ، فخرج ثائراً مُحْنَقاً. ثم علمت انه اخذ ما كان لديه من مال قليل ، وأبحر إلى جَنوب أفريقيا على أمل أن يصيب فيها الغني والثَّراء ، وتسمى ((نفيل)) وانقطعت عنا أخباره فلم يردّ على رسالةٍ واحدة من الرسائل الكثيرة التي كتبتها إليه ، ولعله لم

يتسلم شيئاَ منها ، ولقد ذهب بحثي عنه أدراج الرّياح، وكانت رسالتك يا سيّدي بعض نتائج ذلك البحث، ولا أكتمك أنها جَلَست لي بصيصاً من الأمل ، وإني لأنزل عن ثروتي الكبيرة طائعا مختاراً في سبيل الظفر بشقيقي ((جورج)) حياًّ يرزق ، والعودة به إلى منزل أسرته سالماً مُعافى ، وها أنا ذا جئت أبحث عنه ، فلن أتواني عن ركوب كلّ خطر، وعن بَذْل كلّ تضحية في هذه المهمّة التي تفضّل صديقي ((جود)) فصحِبَني فيها)) فهزّ ((جود)) رأسه مؤمِّناً على كلام السير هنري وقال :

– ((ولم أتكلّف في ذلك أمراً عسيراً ، فأنا بحّار متقاعد لا شغلَ لي ولا عمل ... وها أنت ذا يا سيد ((كاترمان)) على علم بحالنا وغايتنا فأطلِعْنا على ما تعرف من أمر هذا الذي تسمى باسم (نفيل) .))





٢

رآني ((السير هنري)) متردِّداً في الإجابة عن سؤال الرُّبّان ((جود)) فكرّر السؤال ، وما كنت وأيْمُ الحق متردِّداً في الجواب إلا ريثما أفْرَغُ من حشو غليوني بالتَّبْغ فقلت :

– ((إن الذي بلغني عن شقيقك يا سيدي هو أنه أراد أن يعثر على كنوز الملك سليمان !))

فانتفض ((السير هنري)) والرُّبّان معاً وقالا بصوت واحد :

– ((كنوز الملك سليمان ؟ ! وأين هي ؟!)) فقلت :

– ((لست أدري ولكنني أعرف المكان الذي يُزْعَمُ أنها مخبوءةٌ فيه .... بل رأيت مرة قِمَم الجبال التي قيل إن تلك الكنوز مدفونة وراءها ...

رأيتها على بعد مئة وثلاثين ميلا ، وكانت تفصلني عن تلك القِمَم صحراءُ واسعة ، ما اجتازها قطُّ رجلٌ أبيضُ اللهم إلا واحداً فقط ، فإن شئتما حدَّثْتكما بما أعرف عن أسطورة كنوز سليمان كما رُوِيَت لي ، ولكنّ لي عليكما شرطاً واحداً وهو أن لا تَنْبسَا بكلمةٍ مما تسمعان إلا بإذني ، فهناك أسباب وجيهة تحملني على هذا الاحتراس ، فهل توافقان ؟))

فهزّ ((السير هنري)) رأسه دلالة على الموافقة ، وأعقبه الرُّبّان قائلا :

– ((نعم نوافق ... نعم نوافق ...)) فقلت :

– ((عرفت منذ حوالي ثلاثين سنةً ، رجلا أبيضَ يدعي ((إيفنس)) وكان هو أيضاً مُغْرَماً بصيد الفِيَلة مثلي . كنا في الجهة الشمالية الغربية من ((الترنسفال)) فجلسنا ذات ليلة نتحدّث ، فأخبرني أنه في أثناء توغّله في المجاهل والصحاري عثر على قِطَع ضخمة من الحجارة ، وعلى بداية طريق تغطية الرمان ، فأيقن أنها بقايا مدينة قديمة تتّصل بتلك الجبال التي تُرى في نهاية تلك الصحراء الممتدة الأطراف ، وكنتُ أنا في ذلك العهد فتًى حديث السنّ ، فضحكت من هذا الذي أثار اهتمام محدّثي فقال لي : ((لا تضحك يا فتى إن تحت تلك الحجارة حضارةً عريقة في القِدَم)) فأمسكتُ عن الضَّحِك ولكني في قرارة نفسي حكمتُ على الرجل بالعَتَة والخبول حتى سمعته يقول لي : ووراء تلك الجبال كنوز سليمان ، أما سمعتَ قطّ بكنوز سليمان ، وما كان يملكُ من مناجم الذهب واللؤلؤ والألماس ؟ فقلت له : كلا ! ولكن كيف عرفت

ذلك ؟ فقال : عرفته من ساحرة قابلتها في قريةٍ قريبةٍ من مدخل تلك المدينة ، فأخبرتني أن السكّان وراء تلك الجبال ينحدرون قبائل ((الزواو)) ويتكلمون بلغةٍ شبيهة بلغتهم ، وأنهم رجال أشداء يتعاطى فريق منهم فريق منهم السِّحر وقد توراثوه كابراً عن كابر ، وأخذوه عن الرجال البيض الذين وصلوا إليهم في العهود السَّحيقة ، فسَحَرَتُهم هؤلاء يعرفون طريق منجم من الحجارة البراقة ... اهتممتُ بعضَ الاهتمام بحديث صاحبي ثم افترقنا فنسيته ، ولا سيما أن صاحبي هذا قد قتل بعد أيام معدودات ، قتله ثور جريح أغمد قرنَيْه في أحشائه ...))

سكتُّ هنيهة لأستجمع شوارد خواطري ثم استأنفت الحديث قائلا :

– ((بعد هذا الحادث بعشرين عاماً .... أجل بعشرين عاماً ... عرفت رجلا آخر حدَّثني هو أيضا عن كنوز الملك سليمان بعد إذ كان النسيان قد طوي أمرها من ذاكرتي ...))

((فقد كنت ذات مساء أتناول عشائي في جهة نائية من جهات ((الترنسفال)) قريبة من تلك الصحراء التي حدّثني عنها ((إيفنس)) المسكين ، فمرّ بي رجلٌ من أهل ((البرتغال)) يبتعه خادم أسود فاستضفته تلك الليلة وكان اسمه ((جوزي سلفستر)) فلما انبثق الفجر ودّعني وانصرف هو وتابعه وقال لي : ((إذا التقينا مرّة أخرى يا سيد ((كاترمان)) فسأكون أغنى رجل في العالم ولن أنساك !)) ثم رأيته قد سار في شعار تلك الصّحراء ، فأيقنتُ أن الرجل مجنون من المجانين .. وفي أصيل

اليوم الثامن من رحيل الرجل ، جلست على باب خيمتي أمتّع الطّرْف بجمال مغرِب الشمس ، فلمحت عن بُعْد رجلا يمشي على قدميه ويديه وكأنه يَزْحَف ، ثم ينهض قليلاً فيقع ، فأدركت أنه في حاجة إلى المعونة ، فأهَبْتُ بأحد رجالي ، وطلبت إليه من أن يخفَّ إلى مساعدة ذلك الغريب ، فجاءني بعد قليلٍ متوكّئاً على ذراع تابعي ، أفتدريان من كان ؟)) فقال الرُّبّان ((جود)) :

– ((جوزي سلفستر)) وحق السماء ! فقلت :

– ((أجل جوزي سلفستر بل خيال ((جوزي سلفستر)) فقد كانت الحمّى الصفراء قد عبثت بجسمه كلّ العبث ، ودَبَغَتْه باللون الأصفر الفاقع ، ونهشت لحمه حتى أصبح هيكلا من العظام تجمعه جلدة صفراء ... فما كاد يراني حتى صاح بصوت خافت ضعيف :

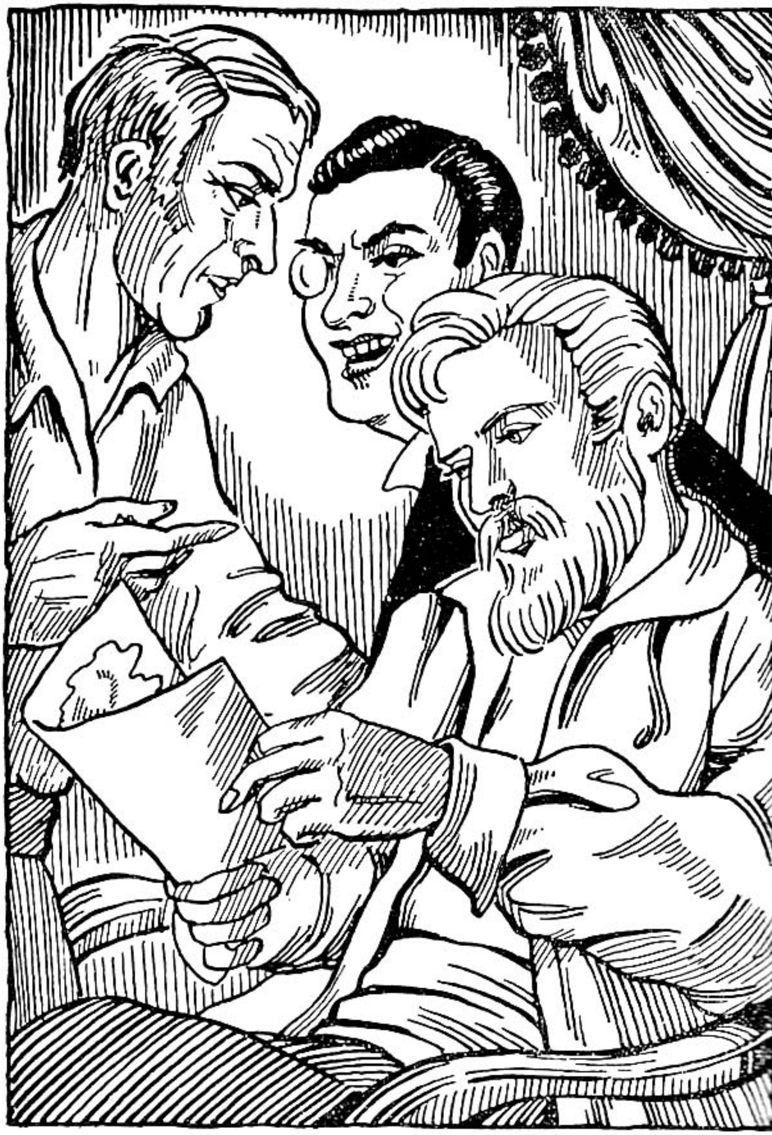
– ((جَرْعَة ماء ... جرعة ماء ...)) فأتيته بالماء ممزوجاً باللبن، وعندما اقتربت منه رأيت شفتيه مشقّقتين ، يمتدُّ منهما لسان أسود متورّم، فيسقه حتى ارتوي ، ثم أدخلته إلى الخيمة وبذلت له ما استطعت من عَوْن فما نـجع فيه دواء ، فقد كان فريسة الحمى فأخذ يهذي ويتلفَّظ بكلماتٍ متقطّعة من مثل : جبال سليمان .... الألماس ..... الصحراء .... وفي نحو منتصف الليل استولى عليه سُبَاتٌ عميق ، فتركته وذهبت آخذ قِسْطي من النوم والراحة .... وعندما استيقظت في الفجر رأيته قد جمع هيكله المتحطِّم ، واستدار إلى ناحية الصحراء . ولما طلعت الشمس

وغمرت بأشعّتها قمَّةَ الجبل العالي من تلك الجبال القائمة في نهاية القفر ، مدّ ذراعه الناحلة صَوْبَ تلك القمة وصاح هو يضطرب : هذا هو .. هذا هو .. هيهات أن أبلُغَه أو أن يبلُغَه مخلوقٌ من البشر ! ! وكأني به بعد كلامه هذا قد عَزَم على أمرٍ من الأمور ، فالتفت إليّ وقال : ((أأنت هنا يا صديقي ؟)) فقلت له : نعم أنا هنا ! ولك ناشدْتُك الله إلا استلقيتَ ، إلى فراشك واسترحت ! فقال : سأستريح عما قريب حينما أنتقل من هذه الدنيا إلى الأخرى فهناك الراحة الأبديّة . أما الآن فأرجو أن تُنْصت إليّ ، فلم يبقَ لي في هذه الحياة إلا القليل .. لقد كنتَ عطوفاً على شفيقاً بي .. لذلك قرّرتُ أن أعطيك الورقة فلعلك تستطيع أنت أن تجتاز الصحراء التي قتلتْ تابعي وقتلتني أنا ... ومدّ يده بعد هذه الكلمات إلى صدره ، وأخرج منه محفظة صغيرة من الجلد ففتحتها ، ثم ضعفتْ أصابعه عن تناول ما تحتوي ، فاستعان بي على ذلك فأطعته وأخرجت من المحفظة قطعة قماش مصفرَّة ، وعليها كتابة كاد الزمن يمحو سطورها ، وكانت مطويّةً على ورقة حافلة هي أيضاً بالكتابة . فقال لي عندئذٍ بصوت متقطّع يزداد خفوتاً – كلُّ ما على قطعة القماش هذه من كتابة ، نقلته إلى هذه الورقة ... إن هذه الوثيقة كتبها أحد أجدادي وكان لاجئاً سياسياً قَدِم من ((لشبونة)) فهو من الكوكبة الأولى التي نزلت بهذه البلاد ... كتبها وهو يجود بأنفاسه

فوق أحد تلك الجبال التي ما وطِئَتْها قدم رجل أبيضَ من بعده .. كان ذلك منذ نحو ثلاثة قورن ، وكان اسمه ((جوزي دا سلفتسرا)) وكان تابعه ينتظره في سفح الجبل الذي يُرَى من هنا ، فلما تأخَّر عليه أدركه ورآه قد لفظ الروح ، فنقل الوثيقة إلى أسرته في لشبونة ... وبقيت هذه الوثيقة في أسْرتنا ، ولم يفكّر أحد قبلي في قراءتها وفكّ رموزها ... وقد ينجح غيري فيما أخفقتُ فيه ، ويصبح أغنى رجل في العالمِ ... أغنى رجل في العالم ... ولكن حَذارِ أن تعطي هذه الوثيقة أحداً من الناس ، بل اذهب أنت نفسُك إلى الكَنز واستوْلِ عليه ... وثقلتْ عليه وطأة الحمّى بعد ذلك فأخذ يهذِي ويهرف حتى فاضت روحه ورجعت إلى بارئها ، فواريته في التراب ، وأثقلت قبرَه بالحجارة حتى لا تَنْبُشَه الثّعالب وبناتُ آوى ، ثم طويت خيامي ورحلت عن تلك البُقعة النائية..)) فقال ((السير هنري)) عندما فرغتُ من روايتي وقد بدت عليه أمارت الجدّ واهتمام :

– ((والوثيقة ؟)) فقلت :

– ((إذا كان يسر كما أن تعرفا أمرها فإني محدّثكما به .... فاعلما أولاً أني ما أطلعتُ عليها أحداً غير زوجتي ، وقد توفّاها الله فهي الآن في عالم الأموات ، على أنها لم تجد للوثيقة أيّ معنًى من المعاني ، كذلك أطلعت عيها رجلاً برتغالياًّ عجوزاً كان يترنَّح من السُّكر ، فعلت ذلك طمعاً في أن يترجمها لي ، وكنت على يقين من أنه سينسى كل حرف فيها إذا ما



طلع النهار .... فالأصل والترجمة موجودان عندي في مدينة ((دربان)) على أنني أحمل معي نسخة بالنص الإنـجليزي ، وكذلك نسخة من الخريطة إذا كانت تلك الخطوط المبعثرة جديرة بأن تسمَّى خريطة ....))

وعلى الفور أخرجت من محفظتي صورة الوثيقة وأخذت أتلوها بصوت عالٍ وهذا نصها :

((أنا جوزي دا سلفتسرا)) الذي تتساقط نفسي قطعةً قطعةً من الجوع والعطش ، في الكهف الذي لا ثلج فيه والقائم إلى الجهة الشمالية من القمة المنحدرة إلى الجنوب من الجبلين اللذين سمّيتهما ((الشَّقيقين))، أكتب هذا في السنة ١٥٩٠ على قميص من ملابسي ، متّخذاً من قطعة عظم مبريّة قلماً ، ومن دمي مداداً ، فإذا وجد تابعي هذا الذي أكبر ونقله إلى ((لشبونة)) فليَقُمْ صديقي (هنا اسمٌ لا يقرأ) بإطلاع الملك عليه ، فإذا رضي الملك بأن يرسل إلى حيث أشير جيشاً يجتاز الصحراء والجبال ، وينتصر على قبائل ((الكوكوانا)) وحيلهم الشيطانية (ويحتاج ذلك إلى معونة نفرٍ من القسّيسين) يصبح أغنى ملك وُجد على وجه الأرض بعد سليمان . وإنّي أقرّر وأؤكّد أني رأيت بعينيّ آكاماً من الألماس، مكدسّة في غرفة كنوز سليمان وراء الموات الأبيض ، ولكن ((جاجول)) المنقّبة عن السَّحَرة خانتني فلم استطيع الظفر بالماسة واحدة ، وكدت أموت في تلك الغرفة . فمن يجئ إلى هنا بعدي ، فعليه أن يتبع الأدلّة المذكورة في الخريطة ، وأن يجتاز الثلوج التي تغطي الشقيق الأيسر حتى يبلغ القمة، ومن

هناك فلينحدر إلى الطريق الذي بناه سليمان ، فبعد مسيرة ثلاثة أيام سيصل إلى قصر الملك ، فليقتل ((جاجول)) وليترحَّمْ عليّ ... الوداع ! جوزي دا سلفتسرا))

انتهيت من القراءة ، وعرضت على محدثَيَّ الخريطة التي خطّها ((جوزي)) الأكبر بدمه وهو يلفظ أنفاسه ، فذهب الرجلان فريسة الدَّهَش والاستغراب ، فما نطقا بحرف إلى أن قال ((السير هنري)) :

– ((عُذرْاً يا سيّد (كاترمان) فما أنا من يظنّ بك سوءاً ، ولكن ألا ترى معي أن قصتك هي من الغرابة بحيث يصعبُ تصديقها ؟! فقلت :

– ((سأريكما أصل الوثيقة والخريطة حالما نصل إلى ((دربان))... أما شقيقك يا سيّدي ((هنري)) فلم أحدّثك بعدُ عنه ... فقد كنت أعرف تابعه المسمَّى (جيم) فهو صيّاد ماهر من سكان هذه البلاد ، فضلاً عن أنه فتًى جمّ الذّكاء .. ففي صباح اليوم الذي عزم فيه ((نفيل)) على الرحيل ، رأيته قريباً من عربي يفرك بين راحتيه بعض التبغ فقلت له : ((إلى أين يا جيم هذه المرة إلى صيد الفِيَلة ؟ فقال : ((كلا ! إننا ذاهبان إلى حيث نـجئ بشيء أثمن من العاج)) فقلت وقد أثار في الفضول فاكتفيت بما سمعت، ولم أشأ أن أظهر في عينيه بمظهر المتطفّل، فتركته وذهبت إلى شأني ، فرأيته قد لحق بي بعد دقائق وقال لي : ((سيّدي... سيّدي)) فتجاهلت النّداء والمنادي ، فرأيته قد انحنى

عليَّ وقال :- ((أننا ذاهبان إلى حيث نملأ جيوبنا وحقائبنا بالألماس !)) فقلت له : - ((ولكنكما تتّجهان وجهة خاطئة ، فعليكما أن تسلكا طريق المناجم ....)) فقال : - ((ألم تسمع يا سيّدي بجبال سليمان ؟! فقلت : بلى سمعت بها إنها خُرافة ..)) فقال : ((كلا ليست خُرافة ... حدّثتني بذلك عجوزٌ أتت من هناك .. لقد ماتت .. فقاطعته قائلا : ستكون أنت وسيّدك فريسةً للصقور إذا جازفتما في الذَّهاب إلى جبال سليمان ...)) فقال ضاحكاً :- ((يموت الإنسان مرةً واحدة في الحياة ، فلا أقل من أن يجرّب حظّه في الحصول على الثراء العريض ! وتركني مشدوهاً من فلسفته وانصرف راكضاً .. وبعد نصف ساعة عاد إليّ وقال : لم أشأ أن أرحل من غير أن أودّعك ، فسيّدي مصممٌ على الذَّهاب إلى جبال سليمان ، و يخيّل إليّ أننا لن نعود ... فقلت له : اسمع يا جيم : كثيراً ما اعتمدت عليك فكنت الرجل الأمين .. سأعطيك ورقة تسلمها إلى سيّدك عندما تصبحان على بعد مئة ميل من هنا أفهمت ؟)) فقال : ((نعم فهمت !)) فأخذت ورقة وكتبت عليها (فمن يجئ إلى هنا فعليه أن يجتاز الثلوج التي تغطي الشقيق الأيسر حتى يبلغ القمة ومن هناك فلينحدر إلى الطريق الذي بناه سليمان)) ثم سلمت جيم الورقة فأخذها وطار إلى عربة ((نفيل)) التي بدأت تتحرك ، وكان غرضي من أول لا يتسلم ((نفيل)) الورقة إلا بعد أن يجتاز نحو مئة ميل ، هو الحيلولة

دون مجيئه إليّ وطَرْحه عليّ أسئلة لا أحبُّ أن أجيب عنها ... هذا كل ما أعرفه عن شقيقك يا سير هنري .. وأخشى أن ...))

فقاطعنى ((السير هنرى)) قائلاً :

– ((شكراً لك يا عزيزي ((كاترمان)) إنني أنوي القيام بالبحث عن شقيقي ، وإني على استعداد للذَّهاب حتى إلى جبال سليمان ، واجتيازها إذا قضت الحال ، إلى أن أعثر عليه أو أوقن انه مات ، فهل ترضى أن تصحَبني ؟)) فقلت :

– ((كلا يا سيّدي فقد بلغت من العمر سنًّا لا تسمح لي بركوب المخاطر ، فضلاً عن أن لي ولداً هو في حاجة إلى عوني وإشرافي ، فحياتي ليست ملكاً لي)) .

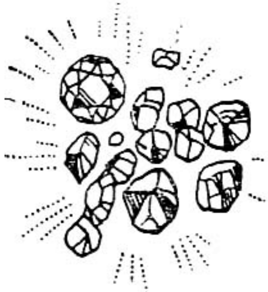
فاستولى على ((السير هنري)) وعلى الرُّبّان ((جود)) الذهول والأسف فقال الأول :

– يا سيد ((كاترمان)) ليس ثمة شيء يُقصيني عن هدفي أو يثنيني عمّا عزمت عليه ، وإني بحمد الله صاحب ثروة ضخمة ، فقدّر أنت لخدماتك ثمناً أدفعه إليك بالغاً ما بلغ قبل أن نخطوَ معاً خطوةً واحدة في البحث عن شقيقي ، هذا ولسوف أتّخذ جميع التدابير ، إذا ما أِصبْتَ أنت أو أصِبْنا نحن جميعاً بمكروه ، في أن أضمن لابنك حياة رغيدة ، فلعلك تدرك من هذا كله أني أعلّق على معونتك آمالا واسعة. أمّا إذا انتهت حَمْلتنا بخير وسلام ونـجاح ، وظفِرْنا بكنوز سليمان ، فلك منها

النصف وللزُّبّان ((جود)) النصف الآخر ، ولست أبغى لنفسي منها شيئاً . فهاتِ شروطك يا سيد ((كاترمان)) فقلت :

– ((إن عَرْضَك سخيٌّ كريم يا سيّدي ، وهو جدير أن يُغْرِيَ صياداً فقيراً مثلي ، على أن الرّحلة محفوفةٌ بالمكاره ، فلابدّ لي من التفكير قبل أن أقطع فيها بأمر ، وسأوافيك بقراري قبل أن نصل إلى ((دربان)) .

ثم تبادلنا تحيّة المساء وافترقنا ، فذهب إلى سريري واستلقيت إليه ، وقضيت الليل وأنا أحلم بالمسكين ((سلسفسترا)) الكبير الذي مات منذ نحو ثلاثة قرون ، ثم مات حفيد له منذ نحو عشرين عاماً ، فريسة كنوز الملك سليمان ...





٣

قضيتُ الأيام التالية في صُحْبة رفيقيّ نتحدّث معاً في كل شيء إلا فيما عرضه عليّ ((السير هنري)) وكنت لا أفتأ أقصّ عليهما قصص الصيد والصيّادين إلى أن وصلت بنا السفينة ذات مساء إلى ميناء (دربان) وكنت أنا على سطح السّفينة قريباً من الدَّفّة فرأيت (السير هنري) والربان (جود) مقبِلَيْن عليّ ، فلما وصلا إليّ بادرني أولهما قائلا :

– هل فكّرتَ فيما عرضتُه عليك يا سيّد (كاترمان) ؟

ولم أكن حتى تلك اللحظة قد اتّخذتُ أيّ قرار أطالعهما به ، فانحنيتُ فوق حاجز السفينة لأفْرِغ في مياه البحر محتوي غليوني، فكفَتْني تلك الثانية مؤونةَ التردد فاستَدَرْتُ نحوهما وقلت :

– ((نعم يا سيِّدَيَّ إني ذاهبٌ معكما وهذه شروطي :

أولا : تكون جميع نفقات الرحلة على نفقة (السير هنري) فإذا اتَّفق أن ظفِرْنا في أثناء الرحلة بشيء من العاج فإنه يُقْسم بيني وبين الرُّبّان ((جود)) مناصفة .

ثانياً : يُدْفع لي قبل الرحيل خمسمائة جنيه إسترليني لقاء أتعابي على أن أخدمكما بكلّ إخلاص حتى تعدلا عن الرحلة ، أو ننـجح فيها أو نكون فريسة كارثة من الكوارث .

ثالثاً : يتكفّل (السير هنري) إذا ما متُّ أو أصبتُ بجراح خطيرة في أثناء الرحلة ، بأن يفع لولدي (هاري) المقيم بلندن مبلغ مائتي جنيه إسترليني في العام وذلك لمدة خمس سنوات .

هذه شروطي ولا إخالني مبالغاً فيها ... فقال (السير هنري) :

– ((كلا وإني لراضٍ بها !...)) فقلت :

– ((إذن اتّفقنا .. أما الأسباب التي دفعتني إلى أن أصحَبَكما فهي هذه : لقد راقبتُكما في هذه الأيام مراقبةً دقيقةً ، واعذراني على وقاحتي، فَرُقْتما في عيني وبد لي أننا سنكون على وفاق .

وأمّا الرّحلة نفسها فلا أكتمكما أننا لن نعود منها سالمين إذا ما عَنَّ لنا أن نـجتاز جبال سليمان .. فماذا كان مصير ((سلفسترا)) الكبير ؟

ومصير أحد أحفاده ؟ ومصير شقيقك يا سيّدي ((هنري)) فنفسي تحدّثني أننا لن نختلف عنهم مصيراً...))

وسكتُّ لحظةً لأرى أثر كلامي في سامعَيَّ فلاح لي الرُّبّان (جود) منزعجاً في حين لم ترتسم على وجه (السير هنري) أيّة علامة من علامات الخوف والقلق فاستأنفت الحديث وقلت :

- ((ولعلكما تتساءلان لماذا قبلت أن أصْحَبَكما وأنا على مثل هذا الاعتقاد واليقين .. هناك سببان : أولهما أني أعتقد بالقضاء والقدر، فإذا كان محتوماً عليّ أن أموت فوقها ولن يعصِمَني منها حام ولا عاصمٌ ، وثانيهما أني رجل فقير ، قضيت نحو أربعين سنةً في الصيد والقنص والتجارة ، ولم أستطع أن أجمع لي ثروة تقيني شرّ العَوَز في شيخوختي ، فإذا متّ في هذه الأيام ذهب ما ادّخرت من مال إلى الدائنين ، وبقىَ ابني فقيراً مُعدِماً لا سندَ له في الحياة ولا نصير يُعينه على استكمال دراسته ... من أجل ذلك كله رأيت أن أقبل ما عرضتَه علي يا سيدي (هنرى) .)) فقال ((السير هنرى)) :

- ((إن الأسباب التى ذكرتها يا سيدى (كاترمان) تشرّفك وتُعْلى من قدرك ، والحوادث هي التي ستفصِل في حَدْسك وتخمينك ، وكيفما كان الأمر فإني مصمّم على السير فيما عزمت عليه حتى النهاية ، فإذا قُدِّر لنا أن نهلك فسوف نبيع حياتنا بأغلى الأثمان أليس كذلك يا (جود) ؟)) فقال جود :

-((إنه لكذلك فقد تعوّدنا نحن الثلاثة أن نُجابه الأخطار فلا معنى أن نتقهقر عنها في هذه المرّة ... فماذا لو نزلنا إلى حجرة الاستقبال

وشربنا نخب نـجاحنا المنشود ! ! !)) .

فأجبناه إلى ما طلب ، ثم غادرنا السفينة وافترقنا على أن نلتقّي في صباح اليوم التالي ، فذهب إلى منزلي في المدينة وقضيت الجانب الأكبر من الليل في جمع حاجاتي ، وترتيب أوراقي ، وكتابة وصيّتي، ثم غرقت في نوم عميق نهضت منه في الصَّباح إلى لقاء رفيقَيَّ ، فكان أول عمل قام بهً (السير هنري) أن نفّذ لي الشروط التي اشترطّها بحذافيرها : فنَقَدني المال الذي رغبت ، وكتب على نفسه الصكّ الذي طلبت ، ثم انصرفت أعِد مُعَدَّات الرحلة ، فاشتريت لحساب (السير هنري) عربةً جيّدة ، وثيراناً قويّة ، وساعدني (جود) في شراء ما يلزم من الأطعمة والأغذية ولا سيما الأدوية وأدوات الجراحة فقد كان فيها خبيراً أي خبير ، لأنه كان قد درس الطب في شبابه دون أن يظفر بالشهادة ، ولقد دلّ فيما بعد على انه في معالجة الأدواء وتضميد الجراح ، أبرعُ من أكثر الأطباء حَمَلَة الشهادات ، فلما أتممنا هذه المعّدات اهتممنا نحن الثلاثة بشراء الأسلحة والذخيرة ، وفرغْنا منها على النحو الذي نريد ، ثم أخذنا نبحث عمن يرافقنا من خدم .

قرّرنا أن يكون معنا خمسة رجال : السائق ومساعده ثم ثلاثة من الخدمِ ، ولم يطل بنا البحث في اختيار السائق ومساعده ، فقد وفّقنا سريعاً إلى رجلين من الزولو يدعى أحدهما ((جواز)) والثاني ((توم)) أمّا الخدم فمشكلتهم كانت أعوص ، فلابدّ من التدقيق في اختيارهم،



ولابدّ أن تتوافر فيها صفة الشجاعة والأمانة ، وأخيراً وقع اختيارنا على اثنين بدا لنا أنهما يجمعان الصفات المطلوبة . كان أكبرهم يدعى ((عصفور الهواء)) وأصغرها يدعى ((كيفا)) وكان يجيد التحدث باللغة الإنـجليزية ، بقى عليّ أن أوفّق إلى العثور على الخادم الثالث، ولكن ذهب بحثي سدًي حتى قرَّرنا أن نبدأ الرحلة ، فلعلنا في أثناء الطريق نتمكّن من العثور على ضالتّنا .

ضربنا لرحيلنا موعداً ، معيّناً وأخذنا نستعدّ له ، وعيشّة اليوم السابق دخل عليّ ((كيفا)) يخبرني أن بالباب رجلا يريد أن يقابلني، فخرجت إليه فوجدتُني إزاء رجل طويل القامة ، عريض الصدر ، قويّ الأجلاد ، جميل الصورة ، يناهز الثلاثين من العمر ، وكان لون بَشَرتَه ضارباً إلى السّمرة وهو أمر نادر في قبائل الزولو .

ووجدته يزين رأسه بالحَلْقة السوداء ، وهي حلْقة تُصنْع من الصَّمْغ المذوَّب بالشحم ، وتُعْقد فوق الرأس مضفورة بالشعر ، ويستعملها المتقدّمون في السنّ من رجال الزولو أو المتقدمون في المرتبة والمَقام . فسألته :

– ((ما اسمك ؟)) فقال بلهجة هادئة خطيرة :

– ((أمبوبا)) فقلت :

– ((وماذا تريد ؟)) فقال :

– ((بلغني أنك ذاهب في حملة كبيرة إلى الشمال مع رجلين من البيض جاءا من وراء البحار فهل هذا صحيح ؟)) فقلت :

– ((كلّ الصحة ...)) فقال :

– ((وأنكم ستجتازون الصحراء القاحلة القاتلة ...))فقاطعته قائلاً :

– ((وما شأنك أنت ؟!))

وخشيت أن يكون سرّ رحيلنا قد ذاع وشاع ، في حين أننا لم نُفْصح عنه لأحد ، فقطع عليّ تفكيري قول الرجل :

– ((أيها الرجال البيض ! إذا كانت هذه نيّتكم فإني أرجو أن أذهب معكم !)) فقلت له :

– ((ومن تكون ؟ ومن أيّ قبيلة أنت ؟)) فقال :

– ((أنتسب إلى قبائل الزولو ولكني لست منهم ، فقبيلتي تقطن في جهة نائية من جهات الشمال ، بقيتْ هناك عندما انحدر الزولو إلى هنا منذ حوالي ألف عام ... هجرت قبيلتي وأنا طفل ، وضربت في الصحاري والغابات سنوات كثيرة قبل أن أصل إلى أرض الزولو ، فلما وصلت إليها هربت منها وجئت إلى ((الترنسفال)) لأرى كيف يعمل الرجل البيض ، فألَّبْتُ الرجال على قائدهم . ولقد تعبت من هذه الحياة، ومن العمل في هذه البلاد ، وإني أرغب أن أتجه إلى الشمال فخذوني معكم ولست أطلب على خدمتي أجراً ، وسوف ترون إني رجل شجاعّ أستحق اللقمة التي أطعمها والمكان الذي أنام فيه ... هذا كلامي ...))

وخرج في هذه اللحظة ((السير هنري)) والرُّبّان ((جود)) فحدّثّتهما بحديث الرجل ، فاقترب ((السيرهنري)) من الرجل وأخذ يتأملّه ويُسَرّح النظر

في ذلك الهيكل الذي تَطفِرُ منه القوّة والبأس ، فأسرّ إلى ((جود)) قائلا :

– ((إنهما بطلان متكافئان فلمن ترى الغلبة لو التحما جسما إلى جسم ! ! ...))

وارتفع صوت ((السير هنري)) في تلك الثانية وهو يقول باللغة الإنـجليزية :

– ((إنك تعجبني أيها الرجل ، وإني أقبلك في خدمتي ...))

ففهم ((أمبوبا)) كلامه وأجاب بلغة الزولو :

– ((حسن ...))

وأخذ يُجيل طَرْفه في ذلك العملاق الأبيض الواقف إزاءه ثم قال :

– ((كمثلي ومثلك يكون الرجل !))





٤

غادرنا ((دربان)) في نهاية شهر يناير ، وبقينا نطوف القُرَى والدّ ساكر ونـجتاز الأدغال والغابات حتى الأسبوع الثاني من شهر مايو متّجهين دائماً إلى الشمال الغربيّ من بلاد ((الترنسفال)) .

اضْطُرِرنا بعد مسير ثلاثة أشهر إلى أن نهجُر العربة التي كانت تُقِلُّنا ، فقد وصلنا إلى بُقْعَةٍ يكثر فيها صنفٌ من الذّباب يسمى ((تسي تسي)) وهذا الذّباب شديد الفتك بالحيوان إلا بالحمير ، فقبل أن نسلك شِعاب تلك البُقعَة ، نزلنا من العربة وتركناها هي والثيران في حراسة السائق ومساعده ، وأوصيناهما بانتظارنا حتى نعود .

وسرنا على الأقدام إلى غايتنا يحرُسنا ((أمبوبا)) و ((كيفا)) و عصفور

الهواء)) وستة من الحمّالين اخترناهم من القرية التي تركنا فيها العربة .

واتّفق أن مررنا ذات مساء بروضةٍ جميلة ، مكسوّة بالأعشاب والأشجار ، قامت في وسطها هَضْبة خضراء ، وترقرقت عند سَفْحها جداول من الماء الصافي رأينا على حافاتها آثار حوافر الحيوان ، فنصبنا خيامنا في تلك الروضة ، وجلسنا نتناول عشاءنا في ضوء القمر .. وفجأة سمعنا من وراء الأشجار المتشابكة دوياًّ عظيماً ((ووف .. ووف)) فقلت :

– ((هذا زئير أسد ...))

فأرهفنا جميعاً آذاننا لنتبيّن الصوت ، فمزّق السكون في هذه المرة صوتٌ ينبعث من جهة جداول الماء فصاح الرجال جميعاً :

– ((فيل .... فيل ....))

فرأينا بعد دقائق قليلة جماعةً من الفِيَلة تمرّ بجداول الماء وتتّجه نحو الغابة ، فخفّ ((جود)) إلى بندقيّته يريد أن يسدّدها إلى فيل من تلك الفِيَلة فمنعته قائلا :

– ((إننا سنستأنف السّير في الفجر ، فلنأخذ الآن قسطنا من الراحة ، ولن نعدم وسيلة غداً في تعقب هذا الرّعيل إذا شئنا ...))

فأقرّني ((السير هنري)) على رأيي وهو يحترّق شوقاً إلى الصيد والقَنْص. ونهضنا في الصباح واتّفقنا على أن نصطاد ولو فيلاً واحداً قبل أن نـجدّ في السير ، فأخذنا بنادقنا وكميّة وافرةً من الذخيرة والأطعمة والشراب، وصحبنا ((أمبوبا)) و ((كيفا)) و ((عصفور الهواء)) ، ومضينا

نتعقّب آثار الفيلة حتى اقتربنا منها بعد مسير ساعتين ، فإذا هي جماعة لا تقلّ عن عشرين فيلاً قد تجمّعت في بطن الوادي ، ثم رأيناها تتفرّق يميناً وشمالاً . وتابعنا نحن السير إليها في رِفْق وحَذَر حتى كدنا نقترب من ثلاثة منها ، فقلت لزميليّ : إني أختار الفيل الأوسط ، قال (السير هنري) إنه يختار الفيل الواقف إلى اليسار ، وبقىَ الفيل الواقف إلى اليمين من نصيب ((جود)) فصوبنا جميعاً بنادقنا ثم صحت :

– ((أطلقوا النار)) .

فدوت في الحال ثلاث طلقات ((بم ... بم ... بم ...)) وقع بعدها فيل ((السير هنري)) فقد كان أصابه في قلبه ، أما فيلي أنا فقد سقط على ركبتيه فظننت أني أصبت منه مقتلا ، ولكن سرْعان ما نهض وأخذ يجري نحوي فاغتنمتها فرصة وسدّدت إليه طلقة ثانية في الضلوع هوَى على أثرها صريعاً .

والتفتُّ لأعرف ماذا كان مصير فيل ((جود)) فرأيته قد أصيب بجرحٍ بالغ ، ولكنه برغم ذلك قد جرى إلى ناحية ((جود)) جرياً حثيثاً، فتملّك ((جود)) الرّعب ، وهرب منه وجهه واختبأ وراء – صخرة من الصخور ، واستمرّ الفيل يركض في ناحية خيامنا حتى غاب عن الأنظار ، وكان الذّعر قد دبَ في قلوب بقيّة الفيلة فولّت الأدبار في غير نظام ولا ترتيب وسارت وهي تَنْهَم و تنام في غير الجهة التي سار فيها الفيل الجريح . وحال جَزَعُنا على صاحبنا ((جود)) دون أن نـُجْهِزَ

على الفيل الهارب ، فهُرِعْنا إليه وناديناه ، فخرج وهو يحرق الأرم غيظاً على أن فاتته هذه الفرصة الثمينة .

وتشاورنا نحن الثلاثة أنتعقّب الفيل الجريح أم نتعقّب بقيّة الفِيَلة الهاربة ؟ فقّر قرارنا على الأمر الثاني ، فما زِلنا نُغِذُّ في السير وراءها حتى أدركناها ، وكأنها شعرت بتعقُّبنا إياها فتفرَّقت في المسالك والشِّعاب لا تلوي على شيء .

ورأينا خمسة منها تنزل في مستنقَع جافٍ لتختصر الطريق إلى ما وراء الآكام ، فقضى عليها سوء حظها أَن تعلق بوحل ذلك المستنقَع ، وأن تتخبّط فيه فلا تستطيع منه فراراً . فاقتربنا منها وكانت لنا هدفاً سهلا فأرديناها جميعاً .

وكان قد حان وقت الأصيل فقرّرنا الرجوع إلى خيامنا تاركين إلى غد مهمةَ نَزْع أنياب الفِيلَة .

عُدْنا إلى الخيام فلمحنا على قرب منا وعلاً جميلا ، فأبي ((جود)) إلا أن يصطاده ، فخف إليه يصحبه الفتى ((كيفا)) وشغلت أنا ((والسير هنري)) بتنظيم بعض الأمور في الخيام .

وما هي إلا دقائق قليلة حتى سمعنا نَهيم فيلٍ عظيم يرجّ الفضاء رجاًّ، فخرجنا نتقصّى جلية الصوت ، فإذا الفيل الجريح قد رجع يعدو صَوْبنا ويكاد يقترب من ((جود)) و((كيفا)) المنهزمين أمامه ، فحِرْنا في أمرنا وخشينا إن نحن أطلقنا رصاصنا أن نصيبهما بسوء ، وازددنا فزعاً ،



ورعباً لما رأينا ((جود)) يتعثّر و ينطرح أرضاً وليس بينه وبين الفيل إلا مسافة أمتار قليلة ، وكاد الفيل يناله بخرطومه ويطؤه بقدمَيه الغليظتين لولا شجاعةٌ فائقة أبداها الفتى (كيفا) فإنه لما رأى أن ((جود)) قد زلّت قدمه وسقط ، وأنه سيدوسه الفيل لا محالة ، استدار على عقبيه وسدد رمحه ورمى به الفيل فأصابه في خرطومه ، ولكن الفيل تحامل على نفسه ووثب إلى ((كيفا)) فخبطه بخرطومه فوقع ثم داس عليه في وحشيّة منكرة ، فما كان منّا إلا أن أمطرنا ذلك الفيل الهائج وابلاً من الرصاص فسقط قتيلاً فوق جثّة الشهيد ((كيفا)) .

وكان ((جود)) قد نهض من عثرته ، وشهد ذلك المشهد الأليم، فأخذ يَعَضُّ أنامله ندماً وحزناً على ذلك الفتى الشجاع الذي ضحَّى بحياته في سبيل إنقاذه من أنياب الفيل . وتقدّم ((أمبوبا)) إلى حيث كان الفيل مجدَّلاً فوق جثّة الفتى ((كيفا)) وحدّق قليلاً في الصّريعين ثم قال :

– ((لقد مات (كيفا) ميتة الرجال ! !))





٥

قضينا يومين في انتزاع أنياب الفِيلَة الثمانية التي قتلناها ، فاجتمعت لدينا كميّة عظيمة من العاج دفنّاها تحت جِذْع شجرةٍ ضخمة وأقمنا حولها الأدلّة والشواهد ليسهل علينا معرفها عند رجوعنا من حملتنا .

كذلك دفنّا الفتى ((كيفا)) ودفنَّا معه رمحاً ليحميه في رحلته إلى العالم الآخر .

وفي اليوم الثالث سارت قافلتنا ، وجَدَدْنا في السير حتى وصلنا إلى قرية تبتدئ في نهايتها تلك الصحراء القاتلة التي تُفضِي إلى جبال سليمان ، فلعبت بفؤادي الذكريات ، وثارت فيه بواعث الخوف والقلق عندما تذكّرت أني كنت في هذه البقاع منذ نحو عشرين سنة ، وأن ((سلفستر))

المسكين قد لفظ أنفاسه بين يديّ وذهب ضحيّة الصحراء بل ضحيّة كنوز سليمان .

تركنا للرُّبّان ((جود)) مهمّة نصب الخيام ، وذهبت أنا و ((السير هنري)) نستطلع ونستكشف ، فقُدْتُه إلى الهضبة التي تبتدئ عند سفحها الصحراء فعلوناها ، وكان الجو صحواً فاستطعنا أن نرى على مرمى البصر جبال سليمان المكلّلة قِمَمها بالثلوج ، ولم أملك نفسي عن أن أهتف : يا سبحان الله ! ! أصحراء قاتلة تنتهي إلى جبال معمّمة بالثلج ! ! قلت لرفيقي :

– ((أنظر إلى قمم تلك الجبال ! إن وراءها كنوز سليمان ...))

فقال بلهجة الواثق المطمئن وهي صفة من الصفات التي يمتاز بها :

– ((إن شقيقي لابد أن يكون هناك ، فإن صحّ هذا فعليّ أن أدركه فيها ...))

وعدنا إلى الخيام ، وقضينا فيها ليلة مطمئنة ، نشِطْنا بعدها في صباح اليوم التالي إلى الاستعداد للرحيل ، فرأينا أن لا نزحم أنفسنا بالسلاح الثقيل ، فصرفنا الحمّالين واستبقينا واحداً منهم جعلناه حارساً على كل ما تركنا من عَتاد وذخيرة .

ثم رأينا أنه قد نحتاج إلى الماء في تلك الصحراء ، ، فحمولة كلٍّ من على اختصارها لا تسمح بأن نحمل معها قِرَب الماء ، فاخترنا ثلاثة من الحمّالين ، وطلبنا إليهم أن يحملوا قِرَب الماء ويوصلوها إلى المرحلة الأولى

من سَفرتنا ، أي إلى بُعْد عشرين ميلا ثم يعودوا ، بَعْد إذ أوهمناهم أننا ذاهبون لاصطياد النّعام . فضحكوا علينا في سرّهم ما شاءوا أن يضحكوا وتجرّأ أحدهم فقال : ((ستهلكون عطشاً يا سادة)) وقبلوا هما الثلاثة مع ذلك أن يصحبونا إلى المرحلة الأولى في رحلتنا .

وبقينا ننتظر مغرب الشمس ومطلَع القمر ، فغربت تلك وطلع هذا يتهادَى في قبَّته الزرقاء ، ويرسل خيوطه الفضّيّة إلى الغيِاض و القفار .

وفي نحو الساعة التاسعة جمعنا ((السير هنري)) فوقفت أنا عين يمينه و ((جود)) عن يساره ،، ووقف ((أمبوبا)) على بعدٍ منّا ، معتمداً رمحه وحاملاً بندقيّته وهو يُطيل النظر في الصحراء الواسعة ، ووقف ((عصفور الهواء)) والحمّالون الثلاثة بقِرَبهم المملوءة أبعد قليلاً من ((أمبوبا)) فسمعنا ((السير هنري)) يقول بصوتٍ رزين خطير :

– ((أيها السادة ! إننا نوشك أن نبدأ رحلة من أغرب الرحلات التي قام بها بنو الإنسان .. ونتيجة هذه الرحلة أمرٌ تحيط به الشكوك والرِّيَب.. على أننا نحن الثلاثة مصمّمون على الذهاب فيها حتى النهاية مهم كان مصيرنا فيها .. والآن قبل أن نخطو الخطوة الأولى فلنرفع قلوبنا إلى الله .. ونضع بين يديه مصايرنا ، ونطلب منه أن يقودنا خطانا ...)) .

قال هذا ونزع قبّعته واعتمد رأسه بين يديه ، وفعلنا نحن مثله ثم صاح فينا بعد دقيقة أو دقيقتين : (والآن إلى الأمام !))

فمشى ومشينا جميعاً وراءه .

توغّلنا في الصحراء ، واستمررنا نسير حتى الساعة الواحدة من الصباح لا نقف إلا لننزع عن أرْجُلنا الشوك والعَوْسج ، أو لنُفرِغ أحذيتنا من الرمل المتسرّب إليها .. وبعد استراحة قصيرة جَرَعنا فيها جرعات ماء قليلة ، استأنفا السير حتى غاب القمر وطلعت الشمس ، واستحال ذلك النور الأبيض الباهت المنبسط على الصحراء كغِلالةٍ مهفهفة ، إلى نور قويّ ساطع تلتمع الصحراء تحته كسبيكة من الذهب .

ومن حسن حظّنا أننا عثرنا في أثناء مسيرنا على قطع من الصخور مبعثرة ، فنزلنا عندها وتدارينا بها ، وتناولنا قليلاً من الطعام والشراب ، ثم نمنا نوماً عميقاً ولم نستيقظ جميعاً إلا في الساعة الثالثة بعد الظهر .

ونظرنا فإذا الحمالون الثلاثة يَهُمُّون بالرجوع ، فقد اجتازا معنا في الصحراء مسافة أكبرَ مما قدّرنا وقدّروا ، فعمَدنا إلى زجاجات الماء التي معنا ، فشربنا منها حتى ارتوينا كلّ الريّ ، ثم ملأناها من القِرَب . وصرفنا الحمّالين فعادوا أدراجهم .

وضربنا نحن في كَبِد الصّحراء زُهاء ساعة فلم نَقْوَ على متابعة السّير، فأخذنا نُداري أنفسنا من وَهَج الشمس بما وصلت إليه أيدينا حتى أقبل المساء وطلع القمر ، فمشينا الليل كله وتوقّفنا في الصباح ، ثم ازدادت حرارة الشمس في ضحوة النهار ، فنضحت أجسامنا بالعرق حتى كدنا نلفِظ الأنفاس ، وليس هناك مأوى نأوي إليه ، وزاد الطين بَلَّة أننا كنا



مع الحرَ والعطش معرَضين لجيوش من الذّباب لا تفتأ تُغير علينا و تلسَعنا لسعاتٍ قارصة .

وفي أثناء ذلك الضّيق الشديد ، اقترح علينا ((جود)) أن نحفر في الأرض حُفَراً نلتجئ إليها ، ونغطّيها بالعَوْسَج فراراً من حرارة الشمس، حتى يهبط المساء فنستأنفَ المسير .

كان الاقتراح معقولاً وإن لم يَقِنا كلَّ الوقاية من وهج الشمس وحرارة الرّمل ، ولكن لابدّ من اختيار اهو الشرَّين فاخترنا هذا المدفن المؤقت، إلا ((عصفور الهواء)) فقد كان من قبيلة لا تؤثّر في رجالها الشمس مهما اشتدّت حرارتها .

وانقضت علينا في ذلك القبر ساعة شعرنا معها أننا نكاد نختنق ، فآثرنا أن نموت ونحن نمشي فوق الأرض على أن نموت ونحن مدفونون تحتها ، فنهضنا وبلّ كلٌّ غليله بجرعة ماء ، وهالنا أن نلاحظ نقصان ذخيرتنا من الماء فإن فاتنا أن نموت من الحرّ فسوف نموت من العطش .

ومشينا .. ولعل كلمة مشينا لا تصوّر الواقع ، فما كنا نمشي بضعة أمتار حتى نتعثّر ونقع ، فنزحف حيناً ، ونهض نستأنف المشي حينا آخر ، وبقينا على هذا الجحيم حتى غربت الشمس ، فاستلقينا نستريح بعد أن تبلّغنا بقليلٍ من الزاد ، وبآخر ما بقى لدينا من ماء ، عاقدين العزم على أن نستأنف السير عندما ينير لنا القمر وَضح السّبيل .

ولم نكد نتمدّد مرهَقين متعَبين حتى أقبل علينا ((أمبوبا)) ولفت

أنظارنا إلى شيء أغبشَ في وسط الصحراء ، يبعُد عنا نحو ثمانية أميال فأمعنَا النظر وحقَّقْنا فلم نستطع أن نتبيّن أي شيء هو ، فعدنا نستلقي طلباً للاستجمام والراحة ، فسمت ((أمبوبا)) يقول لنفسه بلغة الزولو : إذا لم نعثر على الماء فسوف نهلك جميعاً قبل أن يطلُعَ علينا القمر ليلة غد .

استرحنا نحو ساعتين ، ثم قمنا نتابع السير في ضوء القمر ، ولما كنا في أثناء الطريق ، تذاكرت أنا و ((السير هنري)) و ((جود)) في أمرنا ، وعرضنا للمسافة التي قطعناها فإذا هي خمسون ميلا فقلت :

– ((إذا صدقت خريطة ((سلفسترا)) الكبير فيبقي علينا أن نـجتاز ٧٠ ميلاً لأنه يذكر أن عرض الصحراء هو ١٢٠ ميلاً ، وإذا صدقت تلك الخريطة أيضاً فنحن على بُعْد عشرة أميلا من مستنقع الماء الذي يقوم في وسَط الصحراء . فقال ((جود)) رافعاً يديه إلى السماء :

– ((ربِّ ليته من الصادقين يا أرحم الراحمين !))





٦

مشينا حتى الساعة الثانية من الصباح فوصلنا إلى ذلك الشيء الأغبش ، فإذا هو كثبانٌ من الرمل ، فخاب فألنا وتهالكنا إلى الأرض خائري القوى نكاد نموت من العطش . واستولى علينا سُبات عميق ، ولكنني استقيظت بعد ساعتين على حزازة العطش ، فاستحال عليّ أن أنام ثانية ، وكيف أنام وقد كنتُ أحلمُ أني أستحمّ في جدول ماء صناف يجري بين الرياض والغياض ، في حين أن الحقيقة المرة هي أنني في قَفْر بَلْقَع ، وعلى قاب قوسين أو أدنى من لموت عطشاً كما قال ((أمبوبا)) .

استيقظ رفاقي عند بزوغ الفجر وهم يفركون جفونهم المقرَّحة وشفاههم الملتصقة ، وجلسنا جميعاً ندرس موقفنا فإذا هو جدٌّ خَطِير وخَطِر ، فليس

لدينا نقطة ماء واحدة ، ولسوف نتساقط واحداً بعد الآخرة ونموت وحلوقنا جافّة ملتهبة ، وكان ((عصفورا الهواء)) في تلك الأثناء يجول في أطراف الصحراء وكثُبْان الرمل ، وأنفه مرفوع في الهواء فعاد إلينا وهو يقول :

– ((أشَمُّ يا سادة رائحة ماء !))

فوقع كلامه من صدورنا الحرّي موقع الغيث من الأرض الجدْباء ، فابتسمنا للقدر أو ابتسم لنا القدر ، ووثبنا جميعاً نفتش عن ذلك الماء الذي شمّ ((عصفور الهواء)) رائحته .

ولا تسألوا عن مبلغ يأسنا وخيبة أملنا لما مشينا أكثر من ساعة فلم نعثر على شيء يسمّى ماء ، فساروني الغضب وقلت ((لعصفور الهواء)) .

– ((أيها الأحمق ! أين الماء ؟))

فلم يجبني وإنما رفع أنفه يشمّ الهواء ثم قال :

– ((إني أحسُّ بوجود ماء يا سيّدي فالهواء مبلل به ...!))

وَهَمْمت أن أعنّفه فحال دون ما رغبت صوت ((أمبوبا)) وكان يتقدمنا قليلاً وهو يقول بلغة الزولو :

– ((هنا الماء ... هنا الماء ... !))

فحدَّثوا عن فرحنا ولا حرَج ، فطِرْنا إليه على ما بنا من ضعفٍ وخَوَر، فإذا في قمّة أحد الكثبان حُفْرة يتدفّق فيها الماء ، فانكببنا على الحفرة ننهَلُ ونعُبّ من الماء ، ولم نحفِل بطعمه ولا بلونه ، إنه ماء وكفى .

شربنا وشربنا ، ثم نزلنا في الماء نستحمّ ونتبردّ بعد القَيْظ اللاهب

الذي تعرَّضنا له ، وعند الظهر أكلنا طعامنا بشهوة لا مزيد عليها .

وفي المساء شربنا أيضاً وملأنا الزجاجات حتى الشفة ، وسرنا في ضياء القمر مجدَّدي القوى النشاط ، فقطعنا في تلك الليلة ٢٥ ميلاً ولكننا لم نـجد في خلالها أي منبع ماء ،وإنما وجدنا في ضحى اليوم التالي بعض الكثبان فتدراينا بها ، وكانت الشمس قوية الشّعاع فبددت ضَباب الليل ، وبَدَت لنا جبال سليمان في عظمتها وجلالها ، ورأينا منها ((الشقيقين)) وكأنهما مع بعدهما عنا ينهضان فوق رؤوسنا .

وفي فجر اليوم التالي وصلنا إلى أول سفح من سفوح ((الشقيق الأيسر)) ، وكانت ذخيرتنا من الماء قد نفدت للمرة الثانية ، فبدأ العذاب والعطش يُبَرَّحان بنا ولا أمل لنا في النـجاة إلا بالوصول إلى الثلوج المتراكمة فوق الجبل .

تحاملنا على أنفسنا وَجَددْنا في السير ، وقطعنا هَضبَة بعد أخرى حتى كان الظهر فسقطنا إلى الأرض من العطش والتعب والإعياء .

أما ((أمبوبا)) فاستمرّ يسير ، وما هي إلا بضع دقائق حتى رأيناه عائدا إلينا وهو يغني ويرقص كالمجنون ، وفي يده شيء أخضر، فخَفَفنا كلنا إليه على أمل أن يكون قد عثر ماء فما إن اقتربتُ منه حتى صحت فيه :

- ((ما بك أيها الأبله ؟)) فقال وهو يلوّح بالشيء الأخضر الذي في يده :

– عثرنا على ما نأكل منه ونشرب !

فأمعنَّا النظر فيما كان في يده فإذا به بِطّيخة ، وإذا بنا على مقربُة من حقل بطِّيخ وحشي ، فتهافتنا عليه وأكل كلٌّ منا أكثر من ستِّ بِطِّيخات ، وعندما استأنفنا التصعيد في الجبل مساء ذلك اليوم ، حملنا معنا ما استطعنا حمله من ذلك البِطِّيخ .

وكنا كلما ازددنا تصعيداً شعرنا بأن الهواء يزداد برودةٌ فننتعش ونمعن في المسير ، حتى أصبح لا يفصلنا عن مواقع الثلوج إلا نحو ١٢ ميلا . ولشدّ ما كانت دهشتنا أننا لم نقابل في تلك الجبال مخلوقاً ، ولا صادفنا شلالاً على كثرة الثلوج المتجمّعة فوق قمم الجبال ، فعرفنا بعد ذلك أن جميع الشلالات كانت في الناحية الأخرى من الجبل .

وظللنا نصعد يوماً بعد يوم حتى كدنا نبلغ القمَّة ، ولكن يا لسخرية الأقدار ! كنا إلى أيام قلائل نكاد نموت من العطش والحر ، أمّا الآن فنكاد نموت من الجوع والبرد فما عثرنا على حيوان نصطاده ونأكل لحمه بعدما فرغ لدينا الزاد ، ولا عثرنا على مكان نتقي به شر البرد عندما يقبل الليل ، إن ((عصفور الهواء)) الذي لا تؤثر في جسمه حرارة الشمس ، تدعو حاله إلى الشفقة في هذا الجو البارد القارس ، على أننا لسنا أحسن حالاً منه ، فالبرد شديد ينفُذ إلى العظام .

وصلنا إلى تحت القمّة قبيل مغيب الشمس فقال لي ((جود)) :

– ألا تظن أننا على مقربة من الكهف الذي أشار إليه ((دا سلفستر))

وفي وثيقته ؟)) فقلت :

– ((نعم لو صح ما قال وكان لذلك الكهف وجود !)) فقال (السير هنري) :

– ((على رِسْلك يا ((كاترمان)) لا تظلم الرجل فإن لي ملء الثقة بذلك البرتغالي فقد ذكر في وثيقته الماء فعثرنا على الماء وسوف ترى أننا سنعثر كذلك على الكهف !)) فقلت :

– ((إذا لم نعثر على الكهف قبل أن يهبط الليل فعلى الدنيا السلام !))

وسرنا نحو عشر دقائق في ذلك الجليد وأسناننا تصطكّ من البرد ، وكان (أمبوبا) يمشي إلى جانبي ملتحفاً بغِطاء من الصوف فهزّ فجأة ذراعي وقال :

– ((انظر !))

فنظرت حيث أشار فبدا لي أني أرى ثقباً في الثلج فقلت له :

– ((وما ذاك ؟)) فقال :

– ((إنه الكهف)) .

فاقتربنا من ذلك المكان ، فإذا هو مدخل كهف ، فما شككنا أنه الكهف الذي ذكره (دا سلفستر) فدخلنا فيه وسرعان ما غابت الشمس وتركتنا في ظلام دامس .

ولما نهضنا في الصباح على أشعّة الشمس الدافئة التي تسرّبت إلى مدخل الكهف ، استولى علينا حزن شديد إذ رأينا ((عصفور الهواء))

جثّة باردة ، فقد نَهشَه البرد بأنيابه وتركه جسداً بلا روح .

وبينا نحن نـجول في الكهف وجدنا أنفسنا إزاء جثّة أخرى هامدة ولكنها جثّة رجل أبيض ، فحطم هذا المنظر شجاعتنا وخرجنا مسرعين من الكهف ، ووقفنا قليلا نستجمع قُوانا وخواطرها فقال ((السير هنري)) :

– ((إني عائد إلى الكهف .)) فقال ((جود)) .

– ((ولماذا ؟)) فقال ((السير هنري))

– ((لفكرة ترواد خاطري فقد تكون الجثّة التي رأيناها جثَّة أخي !))

فعُدنا جميعاً إلى الكهف وانحنى ((السير هنري)) على الجثّة يفحصها ويتبيّنها ثم نهض وهو يتنفّس الصعداء ويقول :

– ((الحمد للّه ... إنه ليس أخي !))

واقتربت أنا من الجثّة أطيل التحديق فيها ثم قلت :

– ((ترى من الرجل ؟)) فقال ((جود)) .

– ((ألم تحزر من هو ؟))

فهززت رأسي سَلبْاً فقال :

– ((من تريد أن يكون ؟ إنه ((جوزي دا سلفسترا)) يا عزيزي !))

فقلت :

– ((هذا محال ! لقد مات الرجل منذ ثلاثة قرون !)) فقال ((جود)) :

– فيلكن ! إن جوًّا مثل هذا كفيل بأن يحفظ الجثث ثلاثة آلاف سنة ... فلا شمس ولا نور ولا حيوان ، وأغلب الظن أن

خادمه لما لم يَقْوَ على دفنه ، تركه هنا وسلبه ملابسه وما تحتويه أفتريد برهاناً أسطع على ما أقول ؟ فهذا هو)) .

وانحني ((جود)) وتناول من الأرض قطعة عظم مبريّة وقال :

– ((بهذا كتب وثيقته !)) وزاد ((السير هنري)) فقال :

– ((وهذا هو الحبر الذي استعمله !))

وأشار إلى جرح في ذراع الميت اليسرى ، ثم خرجنا ثانية من ذلك الكهف مذهولين ، وبعد لحظات قصار تباعنا المسير في كآبة ظاهرة ، ووصلنا بعد قليل إلى رأس هَضْبةً تنتَهي بأرض معشبة يخترقها شلاّل عظيم ولمحنا عند جانب من الشلاّل جماعة من الغزلان فكدنا نطير من الفرح ، وفي الحال سددنا إليها بنادقنا رغم البُعْدِ الشاسع فانـجلي غبار البارود عن فريسة واحدة فخفّ إليها (أمبوبا) وبدأ يسلُخها ، ولما يكن لدينا ما نتّخذه وَقوداً اضطُرِرْنا إلى أن نأكل لحم الغزال نِيئا فالجوع كافر والمضطرّ يركب الصّعب ، وبعد أن أكلنا هنيئاً وشربنا مريئاً قال ((السير هنري)) :

– ((ألم تشر الخريطة إلى طريق سليمان ؟!)) فقلت :

– ((بلى أشارت ...))فقال :

– ((إذن هذا هو !))

فوجَّهنا الأنظار إلى حيث مدّ يده ، فكشف لنا بداية طريق عظيم، فقرّ رأينا على أن نسلكه في الحال وهكذا كان .



وعلى حين فجأة التمست ((جود)) فلم أجده ، فبحثت عنه وأنا في مكاني فرأيته قد خلع ثيابه ونزل يستحمّ في إحدى السواقي ، ثم خرج وتنشّف وارتدي ملابسه ، وأخرج من جيبه كيساً صغيراً فيه مشط ومرآة صغيرة وأدوات الحلاقة وبدأ يحلِق ذقنه فقد كان معينّاً كلّ العناية بزينته وزيِّه .

ولم يكد يحلِق خدّه الأيمن حتى رأيت دّفْقة من نور قد مرّت فوق رأسه ، فقفز من مكانه وقفزت أنا أيضاّ من مكاني مدهوشاً مستغرباً ، والتفتّ ورائي فوجدت عشرة رجال طوال القامات سمْر الوجوه قد شكّ بعضهم في رأسه مجموعة من الريش الأسود ، وارتدي بمعاطف قصيرة من جلد الفهود ، وكان يتقدّمهم فتًى يناهز السابعة عشرة من عمره ، لا يزال مرفوع الذراع مائل الجسم إلى الأمام في وضع التماثيل الإغراقية من رُماة الأقراص ، ففهمت أن دفقة النور التي لمحتها إنما هي سلاح رماه هذا الفتى .

وبينما كنت أصعّد نظري في تلك الجماعة ، رأيت محارباً عجوزاً منهم قد سارع إلى الفتى وأمسك بذراعه ، وأسر في أذنه بعض الكلمات ثم رأيتهم جميعاً يتقدّمون نحونا .

وكان ((السير هنري)) و (أمبوبا) قد خفّ كلّ منهما إلى بندقيته وسدّدها إلى القادمين ، فلم يحفِلوا واستمرّوا يسيرون ، فأدركت انهم لا يعرفون البنادق ولا ما تهدّدهم به من خطر فصِحْت في زميليّ :

- ((لا تُطْلقا نار)) !

وأيقنت أن المسالمة هي وحدها تنقذنا من شرّهم ، فاستمعنا لنصحي وتقدّمت من العجوز الذي أمسك بذراع الفتى وقلت له بلغة الزولو وأنا لا أعرف بأية لغة يتكلم :

- ((سلام !))

ففهمني وأجابني بلغة قريبة جدًّا من لغة الزولو :

- ((سلام ! من أنتم ! ومن أين جئتم ؟ وما بال ثلاثة منكم بيض الوجوه ورابعكم أسمر أسود كأبناء أمنا ؟!))

- ((نحن قوم غرباء نحبّ أن نعيش في أمن وسلام وهذا خادمنا .))

فقال :

- ((إنك تكذب ، فما من غريب يستطيع إن يجتاز الجبال حيث يموت كل شيء ... فسواء كذبت أم لم تكذب فلابدّ من قلتكم ما دمتم غرباء ، فلا يُسمْح أبداً لغريب أن يعيش في بلاد ((الكوكوانا)) هذه شريعة الملك فاستعدّوا للموت أيها الغرباء !))

ولمحت بعض هؤلاء الرجال قد وضعوا أيديهم على السكاكين الكبيرة المتدلية من خصورهم فسألني ((جود)) :

- ((ماذا يقول ؟)) فقلت :

- ((يقول إنهم سيبعثوننا إلى العالم الآخر .)) فتنهّد وقال :

- ((يا للداهية !))

وبحركة كانت من عادته إذا فكر في حلّ مشكلة عويصة ، عمَد إلى مجموعه أسنانه الصناعيّة التي في فمه وانتزع الصفّ الأعلى منها وضرب به الصفّ الأدنى ثم تركه فعاد إلى مكانه في دويّ حادّ .

كانت هذه الحركة موفّقة سعيدة فقد ألقت الذعْر في قلوب رجال ((الكوكوانا)) فتراجعوا نحو عشرين متراً إلى الوراء فقال له ((السير هنري)) بصوت منخفض :

- ((حسناً فعلت يا جود انتزع مجموعة الأسنان كلها !))

فلبى ((جود)) الطلب وانتزع مجموعة أسنانه وأخفاها في كمّه ، فعاد هؤلاء الرجال إلينا يدفعهم الفضول وكأنهم نَسُوا أنهم حكموا علينا بالموت ، فتقدّم كبيرهم وقال وهو يشير إلى ((جود)) :

- ((كيف يمكن هذا الرجل أن يكون ذا شعر في خدٍّ واحد ، وأن تتحرّك أسنانه بحيث تخرج من فكَّيه وتعود إليه ؟! فتهتف أقول ((لجود)) :

- ((افتح فمك ...))

ففتح ((جود)) فمه وقلب شفتيه فصاح الرجال :

- ((أين أسنانه ؟! فقد رأيناها منذ لحظة بأمّ أعيننا !))

فأدار ((جود)) وجهة ، ومرّ بيده على فمه ، وأخذ يقهقه في أعين القوم وقد بانت أسنانه البيض اللامعة . فخرّ الفتى الذي رمى ((جود)) بالسكين إلى الأرض يختلج رعباً وذعراً ، أمّا المحارب العجوز فقد اصطكّت

ركبتاه من الدَّهَش فقال :

– ((أرى أنكم من الأرواح فعذراً يا سادة وسامحونا !))

فاغتنمت هذه الفرصة الذهبية وقلت :

– ((سنعفو عنكم ! وستعرفون حقيقتنا ! اعلموا أننا وإن كنا رجالاً مثلكم ، فإنما جئناكم من عالم آخر ، جئناكم من أكبر نـجم يسطع ليلا في السماء ! قد تظنّون أننا عاجزون عن أن نثأر لأنفسنا من هذا الاستقبال السيّئ الذي خصصتمونا به ، فيالضلال ما تظنّون ! انتظروا قليلاً لأريكم مبلغ سلطاننا !)) والتفتّ إلى ((أمبوبا)) وقلت :

– ((أيها العبد ! ناولني الأنبوبة السحرية التي تتكلّم .))

وغمزته بعيني وأشرت إلى بندقيتي ذات الطلقات الكثيرة المتتابعة ، فعرف ((أمبوبا)) كيف يتقن التمثيل ، فجاءني ببندقيتي وانحنى حتى الأرض وهو يقول :

– ((هذه هي يا ملك الملوك !))

وكنت قبل أن أطلب البندقية قد لمحت غزالاً على بُعد سبعين خطوةً منا ، فسدّدت البندقية إلى الغزال تسديداً محكماً حتى لا أخطئه ولا يضيع نفوذي ، وكبست على الزناد فانطلقت الرَّصاصة وأصابت الغزال فأردته قتيلاً ، فكادت عيون القوم تخرج من محاجرها رُعْباً ودَهَشاً وأمنعت في التمثيل فقلت :

– إذا كنتم لا تزالون تشكّون في مقدرتنا وسلطاننا ، فليقف أحدكم

على هذه الصخرة وأنا أفعل به ما فعلت بهذا الغزال !

فما تحرّك أحد فقال رجل منهم :

– ((آمنا بسحركم يا سادة ! إنه يفوق سحرنا أضعافاً مضاعفة !))

فقال العجوز :

– ((هذا صحيح .. فاسمعوا يا أبناء النجوم ، أصحاب الأسنان المتحرّكة ، يا من تزأرون مثل الرعود وتقتلون عن بُعْد .. أنا ((إنفادو ابن كافا)) الملك السابق لشعب ((الكوكوانا)) وهذا الفتى هو ((سكراجا ابن طوالا)) الملك العظيم ... ((طوالا)) هو السيد الأعلى لقبائل ((الكوكوانا)) وحارس الطريق الكبير ... هو كابوس أعدائه وزعيم السِّحر الأسود ، ورئيس مئة ألف محارب ...)) فقلت :

– ((ليكن من يكون ..... فهيّا بنا إليه ..)) .





٧

سرنا جميعاً إلى مقر الملك مجتازين طريق سليمان ، نهبط منه حيناً إلى الأودية ، ونصعد حيناً آخر في التِّلال والهِضاب ، فمررنا بكثير من القُرّى والأكواخ ، وقابلنا آلافاً من الرجال وكلهم على استعداد لخوض المعارك والقتال ، وكان ((إنفادو)) يحمينا منهم بإشارة منه فقد كانوا رجاله ....

مشينا حتى المساء فاستضافنا ((إنفادوا)) في بعض الأكواخ لنستريح وتنام ونستأنف السير في الصباح إلى لقاء الملك ، وكدنا نستلقي على أقفينا من الضحك عندما سمعنا ((إنفادو)) يرحّب بنا ويدعونا إلى دخول الكوخ قائلا :

– ((تفضلوا بالدخول يا أبناء الكواكب والنـجوم !)) فقلت :

– ((لا بأس فنحن متُعْبون من التحليق في الفضاء والسير فوق مناكب السحّاب ... إننا نقبل ضيافتك راضين مسرورين ...))

ودخلنا الكوخ الذي دعانا إليه ، ثم ما عتّمنا أن رأينا سرباً من الفتيات أقبلن يحملن قِصاع الطعام من لحمٍ ولبن وعسل ، فأكلنا ونحن لا نفتأ نحدّث ((إنفادو)) ويحدّثنا .

طرحت عليه وابلاً من الأسئلة فكان يجيب عنها في صراحة ووضوح ولقد فهمنا من أحاديثنا معه أن الملك ((طوالا)) ليس الملك الشرعي وإنما هو قاتل أخيه الأكبر ومغتصب عرشه ، وأن زوجة القتيل قد هربت هي وطفلها ((إنيوزي)) البالغ من العمر ثلاث سنوات واتجهت إلى ناحية هذه الجبال في الشمال ، ولابدّ أن يكونا قد ماتا لأنه لم يعثر لهما على أثر ولأن هذه الجبال تقضي على كل من يذهب إليها فقلت :

– ((ومتى حدث ذلك ؟)) فقال :

– ((منذ نحو ثلاثين عاماً .)) فقلت :

– ((لو وُجِد هذا الطفل لكان إذن ملككم الشرعي !)) فقال :

– ((هو ذاك وعلامته الفارقة تلك الحيّة المقدسة الملتفّة حول خصره ولكن كل هذا أوهام في أوهام ...)) .

وتركنا ((إنفادو)) في الهزيع الأول من الليل وانصرف ، فاستسلمنا نحن إلى الرقاد .

وفي الصباح تابعنا المسير فمشينا النهار كله واسترحنا في الليل حتى

وصلنا في ضحى اليوم التالي إلى ما يشبه مدينة صغيرة من المدن ، تناثرت فيها الأكواخ والخيام ، وكان على مرتفع من الأرض منها كوخ يمتاز عن بقيّة الأكواخ ، ويدلّ مظهره وأناقته على أنه كوخ الملك تعجّ من حوله الرجال والحُرّاس .

وكان الملك قد سبقتنا إليه الرُّسُل ، فعلم بمَقْدَمِنا ، ولعلّه أمرَ بعض كتائبه فتجمّعوا في ذلك السّهل المنبسط أمام كوخه ، لأننا ما كدنا نُشْرف على ذلك السهل حتى رأينا فيه ما لا يقبل عن ثمانية آلاف رجل ، تتدلّى الحناجر والسكاكين من أحزمهم ، وتبرُق أسنّة الرماح فوق رؤوسهم .

اقتربنا من ذلك المكان الرهيب ، فتركنا ((إنفادو)) وذهب بخير الملك بوصولنا ، ولاحت لي وراء السهل ثلاثة جبال فقلت لأصحابي :

– ((انظروا فهذه هي الجبال المخبوءة فيها كنوز سليمان !))

وكان ((أمبوبا)) في جميع هذه المراحل ساهم الوجه مشرد الفكر ، كمن يعتلج في صدره أمر خطير .

ورجع (إنفادو) بعد قليل وصَحِبَنا إلى كوخ الملك ، حتى إذا كنا على بُعد خطوات منه ، فتح الباب وخرج منه رجل عملاق قد ارتدى بجلد نَمِر ، ووراءه ابنه (سكراجا) ومخلوق أشبه بالقرود ، وقد التحف بمِعْطف من الفراء .

فنزع ذلك العملاق جلد النمر ، فبدأ لنا في منظر يثير الرّعب والاشمئزاز : فمن شفتين غليظتين ، وأنف مطموس ، وعين واحدة

تبرق بالخُبْث والشرّ ، في حين كانت الثانية مقلوعة ولا يظهر منها إلا ثقب عميق . وكان فوق رأسه الضخم ريشة نَعام بيضاء جميلة ، وحول جسمه درع من الزَّرَد ، وفي يده الميني رمح طويلة ، وكان في عنقه قلاده ضخمة من الذهب ، وفوق جبينه ألماسة كبيرة الحجم غير مصقولة .

تقدّم ذلك الجبار خطوة واحدة ولوّح برمحه في الفضاء ، فاهتزَّت على أثره ثمانية آلاف رمح ، وانطلق من ثمانية آلاف حنجرة صوتٌ واحد يُدَوّي يا سلام الملكيّ ويقول : ((كوم)) وتكرّر ذلك ثلاث مرّات حتى كادت الأرض تميد تحت أقدامنا .

ثم ساد صمت رهيب فالتفت ((طوالا)) إلينا وقال :

– ((أيها الرجال البيض ! من أين جئتم وماذا تطلبون ؟)) فقلت :

– جئنا من النجوم فلا تسألنا كيف جئنا ، غرضنا أن نزور بلادكم. فقال :

– ((وهذا الرجل الذي يصحبكم – وأشار إلى ((أمبوبا)) – أهو أيضاً من سكان النـجوم ؟!)) فقلت :

– ((نعم ففي السماء رجال لونهم كلونك ... ولكن لا تحاول يا (طوالا) معرفة أشياء هي فوق مستوى أفهام البشر !)) فقال :

– ((إنكم يا رجال النجوم تتكلمون بجرأة بالغة ، فاذكروا أن النجوم بعيدة منكم وأنكم هنا على الأرض)) . فقلت :

– كنْ حَذِراً أيها الملك فإن مددتَ يدك إلى شعرة من رؤوسنا فأنت



هالك ... ماذا ؟ ألم يخبرك ((أنفادو)) و ((سراكجا)) أيّ رجال نحن ؟! ألم يخبراك أننا نلعب بالموت ونرمي به من نشاء على مسافة بعيدة ؟!)) فقال :

- ((أجل حد ثَّاني بذلك ولكنني لا أصدّق ... فإن كنتم صادقين فاقتلوا رجلا من هؤلاء المصطّفين أمامكم !)) فقلت :

- ((نحن لا نرِيق دم أحد إلا إذا رأيناه يستحقّ العقاب ، فإن شئت إلا أن تعرف مدى قوّتنا وسلطاننا ، فمُرْ خدمَك أن يجلِبوا إلى هنا ثوراً عظيماً وأنا الكفيل أن أرْدِيَه قتيلاً قبل أن يخطو عشرين خطوةً في هذه الساحة ..))

فأمر ((طوالا)) بتنفيذ ما طلبت ، والتفتّ إلى ((السير هنري)) وقلت له : ((هذه نوبتك فلا أريد أن يظنّ هذا الوحش أني بينكم الساحر الوحيد)).

وجئ بالثور وتُرِك في الساحة فجَفَل وهمّ أن يولّى الأدبار، ولكن رصاصة ((السير هنري)) كانت قد أصابته إصابة قاتلة فانكفأ على الأرض ميتاً ، ودَوّت في القوم همهمة دَهَشٍ وإعجاب ولمحت في تلك اللحظة ذلك المخلوق الشبيه بالقرد ينزع عنه مِعْطَف الفراء ويقترب من الملك فإذا هو عجوز شمطاء متجعّدة الوجه ، منحنية الظهر كمن عمِّرَ دهراً طويلاً ، فلولا عيناها البرّاقتان لقلنا إنها جثّة جفّفتها الشمس .

مدّت تلك العجوزة يداً كأنها مجموعة عظام تنتهي بأظافر حادّة

ووضعتها على كتف الملك وقالت بصوت أشبه بالصّرير :

– ((اسمع أيها الملك ! اسمع أيها الشعب ! اسمعي يا جبال ويا أنهار ! اسمعي يا شمس ويا مطر ويا عواصف ! اسمعي ما أتنبأ به فإن سر الحياة والموت كامنٌ فيّ ... دماء ... دماء ... ستجري الدماء أنهاراً ... أقدام ... أقدام ... ستطأ هذه الأرض قدم الرجل الأبيض ... ستكثر الضحايا وستكون طعام الأسود والصقور ...

إني عجوز ... رأيت كثيراً من الدماء وسأرى أكثر منها قبل أن أموت . عرفني آباؤكم وأجدادكم وآباء أجدادكم ... رأيت الرجل الأبيض وعرفت ماذا يبتغي ... إن بغيته هناك (وأشارت إلى الجبال الثلاثة) . أما أنتم أيها الرجال البيض (وأشارت إلينا) فعَمَّ تبحثون؟ أعَن رفيق لكم مفقود ؟ إنكم لن تجدوه فمنذ زمن سحيق لم تطأ قدم رجل أبيض هذه البلاد ... ْإلا واحداً فقط ... ولكنه مات ... أجئتم تبحثون عن الحجارة البراقة ؟ ! نعم جئت من أجل ذلك ، ولكنّكم لن تظفروا بشئ منها ما دام فيها رجال .. فمصيركم الموت الزؤام ... وأنت أيها الرحل الأسود الملتحف بالخُيَلاء والكبرياء (وأشارت إلي « أمبوبا») من أنت ؟ وعمّ تبحث ؟ إنك لم تجئ من أجل الحجارة اللامعة أو المَعْدنِ الأصفر ... إني أعرفك وأشمّ رائحة الدم الذي يجري في عروقك ... اخلع ملابسك ...)

وكأنما أتعبها ذلك الجهد الذي بذلته في خطابها فسقطت لا تعي

والزَّبَد يتدفّق من شِدْقَيْها ، فنقلوها إلى داخل الكوخ ونهض الملك ولوّح بيده فانصرفت الجموع ولم يبق إلا نحن والملك وبعض حاشيته فقال لنا :

– ((أيها الرجال البيض ! نفسي تحدثني يقتلكم ... فالعجوز « جاجول » قد فاهت بكلام غريب فما جوابكم عنه ؟)) فقهقهت ضاحكاً وقلت :

– ((حذارِ أيها الملك ! فليس قتلنا أمراً سهلاً ... لقد رأيت ما حلّ بالثور أفتريد أن يكون مصيره مصيرك ؟)) .

فقطّب الملك حاجبيه وقال :

– ((اذهبوا بسلام ... فالليلة تقام الحفلة السنوية الكبرى ... وستشهدونها ، وإني أؤمنكم على أنفسكم حتى غدٍ وغداً أنظر في أمركم ...)) .





٨

توارى الملك في كوخه وقادنا « إنفادو » إلى الكوخ الذي أعِدَّ لنا فجلسنا فيه نحسَب للعواقب ألف حساب .

وكان ما لمسناه في « إنفادو » من رقة حاشية وطيب قلب ، قد حَدَانا على أن نأمن جانبه ونحدّثه بكل صراحة واطمئنان فقلت له :

– (ما أقسى ملككم هذا يا « إنفادو » وما أفظعنه !) فقال :

– (صدقتَ يا سيّدي إنه رجل غليظ الكَبِد قاسي القلب ، ويسوءني أن أقول عنه هذا وهو أخي من أبي .) فقلت :

– (ولماذا لا يثور الشعب في وجهه ويخلعه عن عرشه ؟) فقال :

– (لو فعل هذا لتولى المُلْك بعده ابنه « سكراجا » فهو أغلظ كَبِداً

من أبيه . فلو لم يُقْتَل أخوه أو لو كان « إنيوزي » ابن أخيه حيا يرزق لتبدَّلت الحال ولكنهما في عدد الأموات !)

فسُمع عندئذ صوتٌ ينبعث من ورائنا ويقول :

– (وكيف عرفت أن « إنيوزي » في عدد الأموات ؟)

فالتفتنا مدهوشين إلى مصدر الصوت فإذا صاحبه «أمبويا » فاستاء « إنفادو » من تدخل صاحب الصوت في الحديث فزجره قائلا :

– (ومن سمح لك بالكلام يا هذا) فقال « أمبويا » :

– (اسمع يا « إنفادو » القصة التي سأقصّها عليك : منذ سنوات عِدّة قُتِل ملككم « إيموتو » غدراً وفرّت زوجته بطفلها « إنيوزي » أليس كذلك ؟) فقال :

– (إنه لكذلك !) فقال « أمبويا » :

– (وأذيع في قبائل « الكوكوانا » أن الطفل وأمه هلكا في تلك الجبال النائية ... أليس صحيحاً ؟) فقال :

– (هذا صحيح ...) فقال « أمبويا » :

– (والحقيقة أن الأم وطفلها لم يهلِكا كما زعموا ، فقد اجتازا الجبال ونقلهما بعض الرُّحَّل عبر الصحراء حتى وصلا إلى حيث وجدا الماء والعشب والأشجار .... واستمرّا أشهراً طويلة ينتقلان من بلد إلى بلد، حتى حلاّ في قبائل « الزولو » فمكثا فيها سنوات ماتت الأمّ بعدها ، فتاه ابنها في البلاد إلى أن استقرّ في بلدٍ يسكنه الرجال البيض ، فخدمهم

وعاشرهم واقتبس منهم الفهم والحكمة) فقال « إنفادو » :

– (إنها لقصّة شائقة فمن أخبرك بها ؟) فاستمرّ « أمبوبا » يقول :

– (عاش « إنيوزي » خادماً ولكنه احتفظ في قلبه بكلّ ما غرسته فيه أمه عن البلاج التي وُلِد فيها ، فكان يفكر دائماً في الرجوع إلى بلاده، ليرى شعبه ومنزل أبيه ، حتى حانت الساعة فالتحق بجماعة من البيض كانوا يقصدون هذه البلاد ، فاجتاز معهم الصحراء وجبال الثلج للبحث عن رجل منهم فُقِد في هذه الأصقاع . وها هم أولاء في بلاد « الكوكوانا » يحدّثونك وتستمع لهم .....) فقال « إنفادو » :

– (وهذا كلام لا يصدُر إلا عن مجنون ....) فقال « أمبوبا » :

– (إني كفِيلٌ بإقناعك يا عمّي العزيز ..... انظر إليّ).

وخلع « أمبوبا » رداءه وقال :

– (أنا « إنيوزى » ملك « الكوكوانا » الشرعيّ .... أتعرف يا « إنفادو » هذه العلامة ؟)

– وأشار « أمبوبا » إلى وشم حول خصره يمثّل حيّةً تبتلع ذنبها، فنظر « إنفادَو » إليه بعينين زائغتين ثم خرّ ساجداً وهو يقول :

– (كوم ! كوم ! ... هذا ابن أخي .... هذا هو الملك ....) فأنهضه « أمبوبا » وقال :

– (لست الآن بالملك ولكنني أرجو بمعونتك ومعونة أصحابي البيض أن أستردّ عرشي ....) لقد كانت « جاجول » الساحرة صادقة في كلامها

فلابدّ من أن تجري الدماء أنهاراً ، ولابدّ من أن يُراق دم هذه العجوز الخبيثة أولا فهي السبب في قتل أبي وهرب أمي ، فهل ترضي يا عمي أن تضع يدك في يدي ، وأن تعرض نفسك للأخطار المحيقة بي وتساعدني على خلع هذا الطاغية ؟) .

فكّر " إنفادو " قليلا ثم اقترب من " أمبويا " بل من " إنيوزي " ووضع يده في يده وقال :

– (يا « إنيوزي » ملك « الكوكوانا » الشرعي ! هذا عهدي يأن أنصرك حتى الموت !) فقال « إنيوزي » :

– (إذا انتصرتُ فستكون أول رجل في المملكة بعدي ، وإن متُّ فبشِّرْ نفسك بالهلاك .... على كلّ حال فالموت ليس بعيداً منك في ظلال هذا الطاغية .) ثم التفت إلينا فقال :

– (وأنتم أيها الرجال البيض هل أستطيع أن اعتمد على مساعدتكم ؟ ليس لدي كبير شئ أقدمه لكم سوى تلم الحجارة البرّاقة إذا ما انتصرنا وكشفنا عن مكانها ...) .

ترجمت مقاله فهبّ (السير هنري) يقول :

– (سننصرك يا « إنيوزي » ما استطعنا ، لا طمعاً في المال فنحن لا نبيع أنفسنا بالمال ،وإنما حبًّا فإنك رجل جدير بمحبة الرجال ، ثم لا تنس أننا جئنا إلى هذه البلاد للبحث عن شقيقي ، فلعلك تهتم بالأمر وتبذل فيه قصيّ الجهد .....) فقال « إنيوزي » :

– (حبًّا وكرامة ....) ووجه خطابه إلى « إنفادو » وقال :

– (أجبني يا عمي بحقّ وشم الحية الذي يطوّق خصري ، أتعلم شيئاً عن رجل أبيض هبط هذه البلاد ؟) فقال « إنفادو » :

– (كلا يا « إنيوزي » فلو رؤى رجل أبيض في هذه الديار ، أو أذيع خبر عنه لبلغني ذلك حتما .) فقال « أنيوزي » موجَهاً الخطاب « السير هنري » :

– (لم يصل شقيقك إلى هنا يا سيّدي !) فقال « السير هنري » :

– (إذن مات في الطريق .... وارحمتاه له !)

وبعد دقائق قليلة خشعنا فيها إجلالا لحزن " السير هنري " ، ما وسعني إلا أن أخاطب " أنيوزي " وأقول له :

– (جميلٌ أن تكون ملكاً بحقّ الوراثة أو بمقتضى الشريعة الإلهية، ولكن ما خطّتك لاسترداد عرشك ؟) فقال « إنيوزي » :

– (لم أفكر في خطّة من الخطط بعدُ فماذا تقول يا عماه !)

– (سأجتهد هذه الليلة في أن استميل بعض الزعماء بحيث يكون لديك في صباح غدٍ عشرون ألف رمح تحت إمرتك ... فإذا انقضت الليلة وكنت لا أزال من الأحياء ، جئت إليك هنا وتحدّثنا في الأمر ...... والآن عليّ أن أذهب لأرقُب الحوادث ..) .

وشهدنا في تلك الليلة الحفلة الكبرى فكانت مما تقشعرّ له الأبدان فضلا عما تثيره في النفوس من هَلع واضطراب .

كانت الساحة مملوءة بالمحاربين الشاكي السلاح ، انتظموا فيها صفوفاً بعد صفوف . وكان إلى جانب الملك مِنصّة وقف عليها نفرٌ من الجلاّدين بسكاكينهم المشحوذة ، وكان إلى جانب الآخر من عرش الملك زُمْرَة من العجائز تتزعمّهن العجوز " جاجول " فكنّ بين الفَيْنةِ والفينة ينزلق إلى الساحة ، وفي يد كلّ واحدة منهنّ عصاً رفيعة ، ويجُلْن في الصفوف باحثات عن السِّحْر الخبيث ، فإذا لمست إحداهن بعصاها رجلاً من الرجال ، حمله زميلاه الواقفان إلى يمينه ويساره ، وسارا به إلى المنصَّة ، فيشير الملك إشارة بيده ، وتتبعه " جاجول " قائلة : (يُقتل) فيُطيح أحد الجلاّدين رأسه بأقل من تردّد الطرف ، وهكذا عددنا مئة وثلاثة رجال ضُربت أعناقهم في تلك الليلة الرهيبة ، تطهيراً للجيش من رِجْس السِّحر كما يزعمون ، والواقع أنها فرصة يتخلص فيها الملك من المتمرّدين عليه أو من أصحاب الشَّوْكة والنفوذ .

وقبل أن يأمر الملك باختتام الحفلة ، نزلت العجوز " جاجول " إلى الساحة وعصاها الرفيعة في يدها ، واجتازت صفوف الرجال يظهرها المنحني ثم رجعت إلى حيث كنَّا نـجلس ، ومست بعصاها رفيقنا " أمبويا " أو " إنيوزي " كما يجدر أن نسميه بعد الآن ، وقالت بصوتها المنكر :

– (إن دمك خبيث أيها السّاحر اللعين ، ويجب أن تُقْتَل لنُنقْذ البلاد من شرورك وآثامك) .



فطار صوابنا ، ونظرت إلى « إنيوزي » فإذا هو قد انتفض واقفاً وسدّد رمحه شأن الرجل الذي يريد أن يدافع عن نفسه ، ولا يبيع دمه بيعاً رخيصاً . وتدخلنا في الأمر وما زلنا بالملك حتى رضيَ أن يحقِنَ دم « أمبويا » لا خوفاً كما زعم من أنابيبنا السحرية التي صوّبناها إليه ، وإنما نزولا عند تقاليد الضيافة التي طالبناه بتوقيرها .

وبإشارة رمح من الملك انفض السّامر، وعُدْنا إلى كوخنا ونحن في غمرة من الذهول والاضطراب .

وفي الهزيع الأخير من الليل ، قَدِم علينا « إنفادو » ومعه ستة من الزعماء ، وكلهم جبّار عنيد يأمر وينهي في ثلاثة آلاف رجل هم طوع بنانه، فقّص عليهم « إنيوزي » قصّته ، ثم خلع ملابسه ليريهم في ضوء الذبالة المتراقصة وَشْمَ الحيّة حول خصره ، فاقتربوا منه واحداً واحداً ناظرين فاحصين ، فلما فرغوا من التدقيق والتحقيق قال لهم « إنفادو » :

– (علامَ عوّلتم أيها الزعماء ؟ أتساعدون هذا الفتى على استرجاع عرشه أم تُحْجِمون ؟) فقال كبيرهم :

– (إذا كان هذا الفتى هو الملك الشرعي حقًّا فليشهد بذلك الرجال البيض ، ولْيُبرِزوا لنا دليلاً منظوراً يراه جميع الناس حتى ينضموا إلينا معتمدين على اننا مؤيدون بسحر الرجال البيض .) فقلت :

– (ألا يكفي وشم الحية أيها السيّد ؟) فقال :

– (كلا لا يكفي .... فقد يكون وُشِم به منذ الصِّغَر ...)

فترجمت لزميليَّ مقالة الرجل فأسْقِطَ في أيدينا ،وما لبث " جود" أن وثب قائماً وهو يصيح : (عندي الدليل ... عندي الدليل ... أطلب منهم أن يمهلونا قليلا .)

فخرج الرجال من الكوخ يستنشقون نسمات الفجر ، وعمد "جود" إلى حقيبة الصَّيْدلة وأخرج منها (نتيجة أو رزنامة) وقال :

– (ألسنا في صباح اليوم الرابع من يونيو ؟ ألم نحرص على هذه الرزنامة لنعرف أين نحن من الأشهر والأيام ؟) فقلنا له :

– (أجل ! وماذا بعدُ ؟) فقال :

– (اقرؤوا ما هو مكتوب في الرزنامة : « يخسف القمر خسوفاً تامًّا ابتداءا من الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة عشر بتوقيف جرنوتش، ويرى الخسوف في أفريقيا الجنوبية ... إلخ « فهذا هو الدليل المطلوب فقل لهم يا عزيزي « كاترمان » إننا سنطفئ نور القمر في هذه الليلة...)، فقال « السير هنري » :

– (وماذا تقول لو كانت الرزنامة مخطئة ؟ إننا سنجرّ أذيال الخيبة، وسيفقد « إنيوزي » الأمل في استرجاعٍ عرشه) فقال « جود» :

– (لاحظت أن الرزنامة كانت دائماً صادقة فلماذا تريد أن تكون مخطئة في هذه المرة ..... إن الخسوف سيبتدئ هنا هذه الليلة في الساعة العاشرة ويستمرّ ساعتين ونصف ساعة وسيكون الظلام شاملا مدة ثلاثين دقيقة .) فقال « السير هنري » :

– (أرى أن نـجازف فما في اليد حيلة .)

فوافقت أنا أيضاً على المجازفة وطلبت إلى ” أنيوزي “ أنيدعو الزعماء فأقبلوا فخاطبتهم قائلا :

– (يا زعماء « الكوكوانا » وأنت يا « إنفادو » اسمعوا ما أقول : نحن قوم لا نريد أن نقيم الدليل على قوَّتنا وسلطاننا ،ففي ذلك تعويق لمجرى الطبيعة ومدعاة إلى خوف الناس ورعبهم . ولكن المسألة على جانب من القدر الخطير فضلاً عن أننا ساخطون على « جاجول » التي أرادت أن تهلك صديقنا « إنيوزي » فقد قرّرنا أن نستجيب إلى رغبتكم ، ونبرز لكم دليلا يراه جميع الناس ...) وقمت إلى النافذة ففتحتها وقلت لهم :

– (أترون هذا القمر الذي يوشك أن يغيب ؟) فقالوا : (نعم نراه) فقلت :

– (أيستطيع مخلوقٌ أن يطفئ نور هذا القمر قبل الساعة التي يغيب فيها ؟) فقال كبيرهم :

– (طبعاً لا فالقمر أقوى من كل مخلوق !) فقلت :

– (إذن سنطفيء الليلة نور القمر !)

ففَغر الزعماء أفواههم مشدوهين وقال ” إنفادو “ :

– (حسن أيها السادة ! ففي هذه الليلة تقام الحفلة الثانية وهي حفلةٌ راقصة ، وسيدعوكم « طوالا » لشهودها ، وستبتدئ بعد غروب الشمس بساعتين . والغرض من هذه الحفلة التي سيرقص فيها سِرْب

من الفتيات الجميلات هو اختيار أجملهن ، والملك هو الحكَم في ذلك، وسيقدّم الفتاة التي يقع عليها اختياره إلى ابنه « سكراجا » ليقتلها ويجعل منها قُرْباناً للجبال الثلاثة القائمة وراءه طريق سليمان . فعليكم أيها السادة إذن عندما يحين هلاك تلك الفتاة المنكودة ، ولن يتأخرّ ذلك عن ساعة واحدة ابتداء الحفلة ، أن تطفئوا نور القمر ، وتنقذوا حياة الفتاة، وتكسبوا ثقة الشعب الذي سينظر إلى عملكم نظرة إكبار وإعجاب .

وسكت « إنفادو » قليلا ثم استأنف حديثه وقال :

– (وعلى بعد ميلين من هنا عند التلّ الشبيه بالهلال ، سينتظركم زملائي على رأس كتائبهم ، وأرجو أن أتمكّن من أن نضمّ إلينا كتائب أخرى ،فإذا أخمدتم نور القمر قمت أنا في حَلَك الظلام وقُدْتكم إلى ذلك التلّ حيث تكونون فيه آمنين مطمئنين ، ثم نُعلها حرباً شعواء على « طوالا » الطاغية !) فقلت :

– (نِعْمَ الرأي رأيك يا سيّدي ! فإلى هذا المساء ...) .

فانصرف " إنفاذو " وصحابه وكنا نحن على جانب كبير من التعب والنعاس ، فنمنا نوماً عميقاً حتى الظهر ، ثم نهضنا وتناولنا طعام الغداء وخرجنا بعد ذلك نطوف في الأحياء ، ويكدّر علينا صفو نزهتنا شئ غير قليل من القلق ، بعثه في نفوسنا الشكّ في صحة الحساب عن خسوف القمر .

وعُدنا إلى الكوخ في حوالي الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين ، فجاءنا بعد قليل رسول الملك يدعوا لشهود حفلة رقص تقوم بها أجمل فتيات

القبيلة ، ويطلب إلينا التعجيل في الذهاب فالحفلة توشك أن تبتدئ .

فعَمَدنا إلى أسلحتنا فحملناها معاً استعداداً للطوارئ عند الهرب ، وسرنا إلى الحفلة بقدم ثابتة وقلب مضطرب .

وصلنا إلى مكان الحفلة فما وجدناه يموج بالجيوش كالليلة السابقة ، ولم يكن المدعوون إلا بطانة الملك وفريقاً من الكبراء والزعماء وقادة الجيوش يتوسطهم الملك " طوالا " وقد جلستْ تحت قدميه العجوز " جاجول " .

ورأينا على مقربة من هؤلاء الناس ، جماعات من الفتيات عقدن حول رؤوسهن أكاليل من الزهر ، وحملن باليد اليمنى غصن نخيل ، وباليسرى زنبقة بيضاء . فلما وصلنا إلى مكان الحفل استقبلنا " طوالا " استقبالاً جميلاً ، ولكنه كله تصنّع وتكلف فلاحظت أنه يطيل التحديق بعينه الوحيدة في " أمبوبا " .

وما هي إلا دقائق قليلة حتى أمر ببدء الرقص ، فاندفعت الفتيات ينشدن الأناشيد ويلوّحن بغصون النخيل والزنابق البيض ، ثم توقّفن وتقدمت واحدة منهن وأخذت ترقص رقصاً جميلاً بديعاً ، حتى إذا انتهت منه عادت إلى زميلاتها وأعقبتها أخري في رقصة منفردة وهكذا دواليك حتى أتمت كل واحدة منهن رقصتها الخاصة ، فرفع الملك عندئذ رمحه وسألني :

- (مَنْ هي أجملهن في نظرك أيها الرجل الأبيض ؟) فقلت :
- (الأولى يا أيها الملك !)

ولشدّ ما ندمت على تسرعي في الجواب ، فقد تذكّرتُ أن من



عادات القوم اختيار أجمل فتاة في تلك الحفلة لتكون الضحية المرتقبة، وازددت ندما وحزنا عندما سمعت " طوالا " يقول للحراس :

- (هاتوها إلى هنا ، وأنت يا « سكراجا » اشحذ سنان رمحك !) .

فأدركت الفتاة أيّ مصير ينتظرها ،فأخذت تصيح وتولول وهمّت بالهرب ، فتلقفها حارسان قويّان وأتيا بها إلى الملك وهي تنشِج وتنتحب ، وتقدم « سكراجا » في تلك اللحظة رافعاً رمحه وأمارات التَوحّش والفظاظة تبدو على وجه ، فرأيت « جود » قد مدّ يده إلى مسدّسه، ولمحت الفتاة منه ذلك فأحسّت بأن لها نصيراً في ذلك الحشد الرهيب، فجرت إليه و انطرحت على قدميه وهي تقول :

- (يا سيّدي الأبيض ! يا أبا النجوم ! احمني ودافعْ عني وخلّصني من هؤلاء الرجال العُتاة الغِلاظ ومن « جاجول » ....) فقال « جود » :

- (اطمئنّي بالا أيتها الجميلة .... سأعمل على أن أجنّبك الأذى ....)

وانحني " جود " لينهض الفتاة فأشار " طوالا " إلى ابنه إشارة خاصة ، فتقدّم والرمّح مرفوعة في يده فهمس " السير هنري " في أذني قائلاً :

- (لقد حانت الساعة فماذا تنتظر ؟) فقلت :

- (وحقّ الأبالسة إني انتظر الخسوف فها أنا ذا منذ نصف ساعة لا أرفع عيني عن القمر فلا أراه إلا منيراً زاهراً .....) فقال :

- (لنقدم وليكن ما يكون ...... ألا ترى « طوالا » قد نفد صبره ؟ فلو انتظرنا لذهبتْ هذه الفتاة المسكينة ضحّية هؤلاء الوحوش !)

فنهضت وأنا ألقي نظرة أخيرة على القمر لعله يصفرّ وينخسف ،

ووقفت بين الفتاة ورمح " سكراجا " وخفّ إلى جانبي " السير هنري " و " أمبويا " وصوّبا بندقيّتيهما ، فصِحْت في " سكراجا " قائلا :

– (على رِسْلِكَ أيها الرجل ..... قِفْ وإياك أن تمدّ يدك إلى هذه الفتاة ! فقد قرّرنا نحن الرجال البيض أن لا تموت هذه المسكينة ، فإذا خطوت خطوة واحدة إليها فسوف نطفئ القمر ونُغْرِق البلاد في الظلمات وسترون عندئذ مبلغ قوة سحرنا !) .

فعل تهديدي فعله فوقف « سكراجا » جامداً لا يتحرّك فقالت « جاجول » :

– (اسمعوا ماذا يقول هذا الدجّال الذي يتبجّح بأن يطفئ القمر كأن القمر مصباح صغير في يده ...... فليطفئه وله منا الوعد بأن نبقيَ على الفتاة ..... أجل ليطفئْه أو ليمتْ هو والفتاة وصحبه ....) .

فرفعت بصري إلى القمر ، وأترك لكم تقدير ما خالجني من الفرح والارتياح ، لما رأيت ظلاًّ خفيفاً قد بدأ يرتسم على وجهه المنير ، فرفعت يدي إلى السماء بحركة عظيمة ، وحذا حذوي « السير هنري » و « جود » وأخذنا أنا و « السير هنري » نتلو ما نحفظه عن ظهر قلب من أشعار ، أما « جود » فاكتفى بتلاوة عددٍ من الشتائم والسباب .

ودَبَّ الذعر في نفوس القوم لما رأوا القمر قد بدا يتناقص فقلت :

– (انظر أيها الملك ! انظري يا « جاجول » ، انظروا يا ناس وقولوا لقد نفذ الرجال وعيدهم فما هم بدجّالين !.. ها هو ذا القمر ينطفئ نوره رويداً رويداً أمام أعينكم ... فعمّا قليل ستغرقون في ظلام

دامس .... وسيعلم الطّغاة أيّ منقلَب ينقلبون !)

ووقع كلامي في قلوب القوم موقعة ، فتملكهم الرعب وجمدوا في أماكنهم كأنهم سمّروا فيها وفي طليعتهم الملك « طوالا » وبقوا على هذه الحال من الرعب لا يبدون حراكاً ولا ينبِسون ببنت شفة ، والقمر آخذ النقصان ، والظلام ينشر ذيوله حتى صاح أخيراً « سكراجا » :

– (لقد قتل السَّحَرة القمر ... إننا سنموت جميعا في الظلام الحالك !)

وكأنما أخذته سورة الخوف أو الغضب فرفع رمحه وهجم به على « السير هنري » فتجنّب هذه الطعنة ثم أطبق بسرعة البرق على «سكراجا » فجرّده من الرمح وأغمده في صدره فوقع إلى الأرض يتلوّى من الألم ويلفِظ أنفاسه الأخيرة .

وكان الظلام يزداد انتشاراً فلم يسّع القوم إلا أن ينادوا بالويل والثبور، ويولّوا الأدبار هاربين ، ويجروا إلى أكواخهم يختبئون فيها حتى لم يبق في تلك الساحة إلا نحن الأربعة والفتاة التي نـجت من الميتة الفظيعة و « إنفادو » وبعض الزعماء الذين زارونا معه في فجر هذا اليوم فقلت لهم :

– (أيها الزعماء ! لقد أعطيناكم الدليل الذي تطلبون ... فلنغتمْ فرصة الظلام ولنبتعدْ عن هذا المكان) فقال « إنفادو » : (تعالوا)

وسار في مقدّمتنا وتبعناه متساندين لأن القمر كان قد خسف كل الخسوف . ومشت الفتاة واسمها « فولاتا » إلى جانب « جود » كأنها تحتمي به فقد شعرت بأنه كان أول من فكر في إنقاذها ...



٩

كان « إنفادو » وزملاءه يعرفون الطُّرُق والدروب تمام المعرفة فقادونا إلى حيث يريدون ، وعندما بدأ القمر يخرج من خسوفه ويعود إليه الضياء شيئاً فشيئاً عرفنا في ضوء نوره الباهت أننا ابتعدنا عن المدينة ، ووصلنا إلى تلّ كبير تُحيط به سلسلة من التلال الأخرى .

ولقد بلغ منا السرور مبلغه لما رأينا تلك البقعة تموج بالجنود المدجّجين بالسّلاح ، فقد اجتمع فيها ما يزيد على عشرين ألف مقاتل .

وعندما لاح الفجر وقف « إنفادو » يخطب في الجموع المحتشدة ويقص عليهم قصّة والد « إنيوزي » وكيف أن الملك « طوالا » قد اغتاله غدراً وعدواناً ، وكيف فرّت زوجة القتيل بابنها ، ويصف لهم ما لاقته من

أهوال وأخطار ، وما تعرّضت له من جوع وعطش . ثم أخذ يُثير حفائظهم على الملك « طوالا » ويذكر ما تعانيه البلاد من ظلمه وقسوته، وقال بعد ذلك إن الرجال البيض قد أرسلتهم النجوم ليعيدوا العرش إلى صاحبه الأصيل الشابّ « إنيوزي» الذي أتوْا به من مطارح الغربة والنفي ... فقابلت الجموع خطابه بدمدمة طويلة تقدّم بعدها « إنيوزي» وتكلم مؤمّناً على كلام عمّه « إنفاذو » وختم كلامه قائلا :

– (أيها الزعماء والجنود لقد سمعتم كلامي فعليكم الآن أن تختاروا بيني وبين الجالس على عرشي عمّي الذي قتل أخاه وشرّد زوجته وأبنه .... أنا ملككم .... فمن اليوم الذي أتسنّم فيه عرش آبائي سأحقن الدماء وسيتمتّع كل منكم بالأمن والطمأنينة والعدالة فمن تختارون ؟ !)

فأجابوا كلهم بصوت واحد :

– (نختارك أنت أيها الملك !)

ثم رفع أحد الزعماء يده فانطلقت الخناجر تنشد مدّويةً : (كوم كوم) وكان هذا هو السلام الملكي إيذاناً منهم بأنهن ارتضوه ملكاً عليهم، فقال لهم :

– (كونوا إذن على استعداد لردّ كيد الغاصب في نَحْره ... إنه سيهاجمنا عما قليل ولكننا سننتصر عليه وعلى رجاله لأنكم تدافعون عن الحق والعدالة .)

وعقدنا نحن بعد ذلك مجلساً حربيا اشترك فيه القوّاد والزعماء ،

وانتهينا منه إلى إعداد العدّة والقيام بالتحصينات اللازمة ، وتوزيع الفرق والكتائب على ساحة القتال ، وانتظرنا هجوم « طوالا » علينا بجيوشه وجنوده .

ولم يَطُلْ انتظارنا فقد ترامت إلينا الأنباء بأن « طوالا » قد جمع جموعه وأنه قد تحرّك بها إلى قتالنا ، واستطعنا بعد قليل أن نرى من التلال التي كنا عليها أن « طوالا » يزحف إلينا في جيوش ثلاثة لا يدرك الطرف آخرها ،وقد اتجه أولها إلى يميننا ، والثاني إلى يسارنا، في حين زحف الثالث إلينا فصاح « إنفادو » :

– (إنهم يريدون قتالنا من ثلاث جهات معاً !) .

وكان الجيش الزاحف في الوسط قد أصبح منا على مسافة قريبة يتقدّمه قائدٌ من قواده ، فلما تأكدت أني مستطيع أن أصيب ذلك القائد برصاص بندقيّتي ، انطرحت أرضاً وصوّبتها إليه تصويباً محكماً ، وضغطت على الزّناد ، فلم تنقضِ ثوانٍ معدودات حتى انكفأ الرجل على الأرض متمرغاً في التراب ، فتعالى هتاف رجالنا ورأوْا في ذلك الحادث بشير خيرٍ ونصر ، وازدادو ثقةً بسحر الرجال البيض ، ولاسيما عندما شاهدوا جنود القائد المقتول قد دبّ الذّعر في صفوفهم فتراجعوا في فوضى واضطراب ، وأتبعناهم ببعض الطلقات فقتلنا منهم عشرة آخرين أو يزيد .

ولكنهم سرعان ما عادوا إلى الهجوم لما رأوا جيش اليمين وجيش اليسار قد التحما بجيوشنا ، فجدّوا في السير إلينا مصعّدين في التلال، وكاسحين الحاميات التي كنا نثرناها في السفوح وفيما بعدها ، فحصدنا

منهم برصاصنا ما استطعنا فما ازدادوا إلا هياجاً وتقدماً وهم يصيحون :

– (« طوالا ... طوالا ... شيالا ... شيالا « أى » طوال ... طوالا ... اضرب ... اضرب ») فيجيبهم رجالنا :

– (« إنيوزي ... إنيوزي ... شيالا ... شيالا « أى » إنيوزي ... إنيوزي ... اضرب ... اضرب .. ») .

وحُمَّ القضاء ونشبت المعركة ، فاشتبكت الرّماح ، وتساقطت القتلى، وكثر الطعن والضرب ، وبقي المتقاتلون في كرّ وفرّ لا يُعْرَف لمن فيهم يُعْقَد النصر . وكان " السير هنري " حتى تلك اللحظة مكتفياً بالنظر والمشاهدة فدخل غمار المعركة يتبعه " جود " فما إنْ لاحت قامته الجبّارة وسط المتحاربين حتى سُمع دويٌّ واحدٌ يقول ما معناه :

– (هذا هو الفيل ! ... هذا هو الفيل ! ...)

فحمل « السير هنري » حملاتٍ شعواء وهو يضري يميناً وشمالاً ضربات قاتلة ، فبثّ الثقة في نفوس رجالنا ، فأخذتهم لوثة من جنون القتال ، فدحروا الأعداء ورأوهم يتراجعون بغير انتظام .

وكانت الأنباء قد جاءتنا بأن مَيْسَرتنا قد تمكَّنت من العدُوِّ وألحقت به خسارة فادحة ، فسررنا واستبشرنا ، ولكن أسْقط في أيدينا عندما رأينا ميمنتنا قد اخترق العدوّ صفوفها فتقهقرت منكسرة . وكان « إنيوزي » إلى جانبي فأسرع يعالج الأمر ويبث الحماسة في النفوس ، فلقِيَتْ أوامره آذاناً صاغية ، وحمل رجاله على العدوّ حملة منكرة فتخاذل وانطوى على

نفسه مهزوماً . وهكذا كسبنا المعركة الأولى واغتبطنا إذ رأينا العدوّ يرجع من حيث أتى . وكان الوقت ظهراً فأخلد رجالنا إلى الراحة وإلى تناول الطعام مهلّلين مفتخرين . وعاد « إنيوزي » إلينا وقال :

– (لا يغرَّنَّكم تقهقر العدوّ فإنه عائد إلينا لا محالة بقوات أكبر وأضخم ، وقد قررت أن أضرب « طوالا » في هذا اليوم الضرب القاصمة قبل أن يعمِد إلى تنظيم صفوفه ، وبهذا ينجلي مصيري ومصيركم معي .)

وعرض علينا « إنيوزي » خطّته الحربية فوافقنا عليها ، وكان قِوامها أن تقف ميمنة الجيش وميسرته في موقف الدفاع ، وأن ينزل قلب الجيش من التلال إلى السهل ويهاجم « طوالا » في معسكره .

وبُلِّغت الخطّة إلى جميع القواد والزعماء فأخذوا يستعدّون لتنفيذها ، ومشى كلٌّ منهم إلى كتيبته ليقضي فيها ما هو قاض ، ونهض « جود » فسلّم عليّ وعلى « السير هنري » مودّعاً وذهب ليحتل مكانه في الميسرة . وبعد دقائق قليلة سار « السير هنري » لينضمّ إلى الكتيبة التي اختبر لها في جيش « إنفادو » . وما هي إلا ساعة من الزمان حتى تحركت الجيوش ، ومشت إلى غايتها وسُمع لها ولأناشيد رجالها دويٌّ هزّ الجبال وأرجاء البوادي وبلغ عنان السماء ، ثم خَفَتَ رويداً رويداً بابتعاد المحاربين عن قواعدهم وأعقبه صمت رهيب .

وكان نصيبي أنا أن أنضمّ إلى الكتيبة التي تزعمها « إنيوزي » فتحرْكت هذه أيضاً إلى القتال ، وتحركتُ معها وأنا أدعو الله أن يهَب لي الحياة

ويخرجني سالماً من هذه المعارك الدامية .

نزلت كتائبنا إلى ساحة القتال فقابلتها كتائب « طوالا » واشتبكت معها في صراع عنيف ، وكنت على البُعْد ألَمح « السير هنري » يروح ويجئ بين الصفوف ، ويهوي بفأسه على رؤوس الأعداء فيحطّمها تحطيماً . وكان من براعة خطتنا أن يعمد رجالنا دائماً إلى قمم التلال فيسدّوا الدروب الموصّلة إليها ، ويُنْزِلوا بكلّ من يقتحمها الموتَ الزؤام . ويمكنكم أن تتحدّثوا عن فرحي وفرح « إنيوزي » لما شاهدنا جيش «إنفادو » وعلى رأسه « السير هنري » يقهر العدو ويضطرّه إلى التقهقر والفرار ، ولكن بثمن فادح فقد سقط من رجاله في المعركة عدد كبير .

وسرْعان ما انقلب فرحنا إلى جزع وخوف ، فقد عادوا العدوّ الكرة وعلى رأسه « طوالا » نفسه فأيقنّا أن فلول جيش « إنفادو » هالكة لا محالة فسمعت « أنيوزي » يقول لي :

– (لن نترك فلولنا تدور الدائرة عليها ... فهيّا إلى معاونتها ...)

وأصدر أمره إلى جيشه فطار يسابق الريح إلى نُصْرة إخوانه ووجدتُني بعد قليل وراء « السير هنري » أبْلِي معه البلاء الذي أستطيعه في الضرب والطعن . وفجأة سمعنا صوتاً يقول :

– (أين أنت أيها الرجل الأبيض الذي قتل ولدي « سكراجا») وكان صوت « طوالا » فقد هجم الوحش الضّاري على « السير هنري» وقبل أن يصل إليه رماه بسهم تلقّاه بطلنا بتُرْسه فطاش وخاب ،

وهمّ « طوالا » أن يتبعه بسهم آخر ولكنه توقّف على حين غِرّة، بل رأيناه يدور على عَقِبيْه ويطلق ساقيه للريح عائداً من حيث جاء يلحقه في فراره جنده وحرسه .

وبينا نحن نمتّع الطرف بهذا النصر الباهر ، وبرؤية فلول « طوالا» تهرُب جارية كالثعالب ، وتطاردها كتائبنا بشجاعة وحماسة ، قرّر « إنيوزي » أن يزحف قلب الجيش أيضاً إلى عاصمة « طوالا » فيأسره ويستعيد منه العرش المغصوب ، ويُنهي القتال . فمشي ومشينا معه وسار الجيش بِرُمَّته إلى احتلال العاصمة ، ولم نكد نسير مدة نصف ساعة حتى لمحنا على بعد قريب منا صديقنا « جود » مرتمياً فوق تلّ من التلال كأنه جثّة هامدة ، فسارعنا إليه وسرّنا أن نراه حيًّا يُرزَق ، ولكنه كان مصاباً بجرح بالغ في ساقه ، فضمّدنا جرحه وأضجعناه على تُرْس عريض ونقلناه معنا .

ولما وصلنا إلى باب العاصمة رأينا إحدى حامياتنا تحرسه ، فحيّت « إنيوزي » بتحية الملك ، وتقدّم القائد وأبلغ « إنيوزي » أن جميع الأبواب تحرسها رجالنا ، وأن « طوالا » وبعض فلول جيشه موجودون في داخل المدينة وهم في تخاذل ظاهر ومستعدّون للتسليم .

وللحال أصدر « إنيوزي » أوامره ، وبعث المنادين يَعِدُون الناس بالصفح والعفو والحياة . ودخلنا المدينة دخول الظافرين بين صفّين من جنود « طوالا « كانت رؤوسهم منكّسة وأسلحتهم مرميّة إلى الأرض ،

ووصلنا إلى كوخٍ « طوالا » ومررنا بتلك الساحة التي كانت في الليلة الأخيرة مسرحاً الفظيعة ، فإذا الكوخ قَفْرٌ لا حرسَ فيه ولا جنود ، وإذا « طوالا » قد جلس في زاوية من زواياه وليس معه إلا العجوز « جاجول » وقد حتى رأسه وأسند ذقنه إلى صدره ـوعلى بُعْد من تُرْسه وفأسه ورمحه ، فأثَّر في نفسي منظر هذا الملك المخلوع مع كل ما ارتكبه من جرائم وآثام .

اقتربنا منه فاستقبلتنا العجوز « جاجول » بسلسلة من الشتائم ، فرفع هو رأسه وحدّق طويلا في « إنيوزي » بعينه اليتيمة وقد أشعل فيها الغضب بريقاً يشبه بريق الألماسة التي في جبينه وقال يخاطب « إنيوزي » بلهجة كئيبة مرة :

– (السلام عليك أيها الملك ... أنت يا من أكلت من خبزي واعتمدت على سحر الرجل الأبيض فقهرت جيوشي وكسرت كتائبي ... أي مصير تدّخره لي أيها الملك ؟ !) فقال « إنيوزي » :

– (المصير الذي ادّخرته لوالدي الذي اغتصبت عرشه سنوات طويلة !) فقال « طوالا » :

– (حسناً سأريك كيف يموت الرجال لتستفيد من ذلك وتتأثّرني يوم تحين ساعتك ..... انظر إلى الشمس التي ستغرُب في بُقْعة من الدم (وأشار بيده إلى الشمس المائلة إلى المغيب) فمن العدل أن تغرُب شمسي معها ، فإني أيها الملك مستعدٌّ للموت ، ولست أطلب إلا الامتياز المقرر

لأسرة « كوكوانا » المالكة وهو أن أموت في قتال شريف ، ولا يمكنك أن ترفض لي هذا المطلب دون أن يلحق بك العار حتى في أعين الخونة الذين لاذوا بالفرار في هذا اليوم !) فقال « إنيوزي » :

– (طلبك مجاب فاختَرْ خصمك ! أما أنا فلا أستطيع أن أقاتلك لأنك تعلم أن الملك لا يقاتل إلا في الحروب !) .

فسكت " طوالا " هنيهة ثم قال يخاطب " السير هنري " :

– (ماذا تقول أيها الرجل الأبيض ؟ أتريد أن نتمّم ما بدأناه منذ قليل ؟ أو إنك تؤْثر أن أدمغك بالجبن والخوف وأن أقول عنك إنك أبيض حتى في كَبِدك !) فقال « إنيوزي » :

– (كلا ! إنك لن تتبارز مع الرجل الأبيض !) فقال « طوالا » :

– (طبعاً لن أبارزه إذا كان خائفاً !)

وفهم " السير هنري " معنى هذا الجملة الأخيرة فصعد الدم إلى وجهه ، وقال :

– (سأبارزُه وأسريه أني لا أعرف الخوف !)

فضحك « طوالا « ضحكةً وحشيَة ، ونهض فاقترب من « السير هنري » وبقي الرجلان لحظات قليلة يصعَد كلٌّ منهما نظره في الآخر ثم حملا فأسيهما وخرجا إلى الساحة فتبعناهما جميعاً .

بدأ القتال بطواف قام به كل من المتبارزّيْن حول الآخر ثم بهجوم وضربات متلاحقة كان هذا وذاك يصدّها بترسه أو يتفاداها .

وكان الجنود المتجمعون حول الساحة قد راقهم هذا الصراع العنيف فضربوا بالنظام عُرْضَ الحائط ، وأقبلوا يتتبَّعون سير القتال عن كثَب ويطلقن هتاف الاستحسان مرّة وهتاف الأسف مرّة أخرى .

استطاع « السير هنري » أن يكيل لخصمه ضربة شديدة حطمت ترسه وجرحته في كتفه ، فخار « طوالا » خُوار الثور وكان « للسير هنري » ضربة فظيعة أصابت مقبض الفأس فكسرته وأطارت الفأس من يده ، فصاح الجنود صيحة اليأس وهالهم أن يصبح بطلنا بلا سلاح وأن يروْا « طوالا » يتقدّم إليه مبتهجاً مكشراً عن أنيابه .

أما أنا فأغمضت عينيّ رعباً وجزعاً ولما فتحتهما رأيت ترس «السير هنري » ملقًى إلى الأرض ورأيت « السير هنري » نفسه قد طوّق بذراعيه الطويلتين خَصر « طوالا » والتحم معه في عراك قاتل .

وتمكّن « طوالا » بعد جهد جهيد أن يفقد « السير هنري » توازنه فسقط إلى الأرض وأسقط معه خصمه وتجدلا يتمرّغان بالتراب . وكان « طوالا » يحاول أن يهوي بفأسه على رأسه « السير هنري » ويحاول هذا وهو أعزل من السلاح أن يتفادَى تلك الضربة .

وكان « جود » قد تبعنا وشهد المبارزة وهو ممدّد على الترس فصاح في « السير هنري » يقول : « جرّدْه من فأسه » ولعل هذه النصيحة قد وصلت إلى أذنَيْ بطلنا فجاهد لينتزع من خصمه تلك الفأس المربوطة إلى يده بشريط من جلد الثور ، وبعد قليل رأينا الشريط ينقطع والفأس



يستولى عليها ((السير هنري)) ورأيناه ينهض ويبتعد عن خصمه قليلاً ويعود إليه وقد نهض هو أيضاً ويكيل له بالفأس ضربة كفيلة بأن تصرع أضخم الثيران ، فانطلقت من الحناجر صيحات الدَّهَش والإعجاب وخرَّ ((طوالا)) صريعاً ، وأخذ رأسه المنفصل عن جسده يتدحرج حتى استقرّ عند قدمي ((إنيوزي)) .

وبلغ الإعياء من ((السير هنري)) مبلغه ، ففقد وعيه وسقط إلى الأرض ، فأسعفناه ورششنا على وجهة الماء ففتح عينيه وحمدنا اللّه على أنه حيّ يرزق .

وفي اللحظة التي غابت فيها الشمس التقطتُ من الأرض تاج ((طوالا)) ووضعته بين يَدَيْ ((إينوزي)) وأنا أقول له :

– خذ التاج يا ((إنيوزي)) فأنت الملك الشرعي لقبائل ((الكوكوانا)). فلبس ((إنيوزي)) التاج ثم اقترب من جثة ((طوالا)) فوضع قدمه فوق صدره وأخذ ينشد نشيد النصر والظفر .





١٠

بعد أن انتهي ذلك الصراع المميت ، نقلنا كلاًّ من ((السير هنري)) و ((جود)) إلى كوخ ((طوالا)) ولم أكن أنا أحسن حظًّا منهما فقد شعرت بقواي تخور مما أصابني في ذلك اليوم من تعب وإعياء وخوف وهَلَع .

وجلسنا في المساء نتحدّث ونتذاكر ما مرّ بنا من أهوال ، فحمدنا الله على سلامتنا جميعاً .

أما ((فولانا)) الفتاة التي أنقذناها من الموت ، فقد قامت بخدمتنا ، فإنها منذ الساعة التي نجت من الهلاك لم تفارقنا ، وبعبارة أصحّ لم تفارق ((جود)) فاعتنت بجراح ((السير هنري)) وجرح ((جود)) ومسحتها بضَرْب من المرهم المصنوع من بعض الأعشاب ثم ضمّدتها بضمادات محكمة .

وخفّت بعد ذلك تصنع لك شيئاً من الحساء فشربناه بلذّة وسرور ثم نمنا نوماً عميقاً حتى الصباح .

وفي الساعة الثامنة زارنا ((إنفادو)) وأخبرنا أن جميع جيوش ((طوالا)) حتى الزعماء في الجهات النائية قد استسلمت إلى ((إنيوزي)) وأقسمت له يمين الولاء والطاعة ، وأن موت ((طوالا)) كفيل بأن يقضي على كلّ تمرّد وعصيان ، فما في القوم أحد يطمع في العرش بعد ((طوالا)) وبعد ابنه ((سكراجا)) وكلاهما قد أصبح في عداد الأموات .

وفي ضحوة النهار زارنا ((إنيوزي)) وهو معصّب الجبين بتاج الملك ، فلما رأيته محاطاً بالحراس ، محفوفاً بالعظمة والتعظيم ، تذكّرت ما كان عليه من أشهر قليلة من فاقةٍ وهوان فقلت في نفسي : يا لتقلّبات القدر ! وخففت إليه وأنا أقول :

– (السلام عليك أيها الملك !) فقال :

– (نعم يا صاحبي .. إني ملك والفضل يعود إليكم أنتم الثلاثة !)

وسألته عن العجوز ((جاجول)) وعما قرّره بشأنها فقال :

–(إنها السّاحرة السوداء ، فسوف أقتلها وأقتل معها جميع السَّحَرة.. !)

– (ولكنها تَعِي في صدرها كثيراً من الأنباء والمعارف والأخبار ...)

– (إنك على حق ... إنها وحدها تعرف سر ((الجمال الثلاثة)) المدفون فيها ملوك ((الكوكوانا ...)) .

– (نعم والمحفوظة فيها اللآلي والألماس ، فلا تنس يا ((إنيوزي))

وعدك ، فعليك أن تقودنا إلى هناك ولو اضطُرِت إلى أن تحقن الدم ((جاجول)) وتُبْقِيَ عليها لتكون دليلتنا إلى مخبأ الكنز ...)

– (لن أنسى ذلك ... وسأذكر كلّ ما تقوله.)

ثم ودعنا وانصرف ، واستدرت أنا إلى (جود) لأطمئن على صحته فإذا هو صريع الحمّى ، وبقى كذلك عدة أيام حتى قطعنا الأمل في شفائه إلا الفتاة ((فولاتا)) فقد كانت تؤكّد أنه سيعيش ، فما توانت لحظة واحدة في تمريضه وخدمته ، حتى إنها كانت تقضي الليلة إلى جانبه ترعاه وتعتني به .

وقدّر لصاحبنا (جود) أن ينـجوَ من قبضة الداء ، وأن يدخل في طَوْر النقاهة متماثلا للشفاء يوماً بعد يوم ، فأخبره ((السير هنري)) بما فعلته ((فولاتا)) في سبيله فاغرو وقت عيناه بالدمّوع شكرا وعرفاناً للجميل .

وذهبنا بعد أيام إلى لقاء ((إنيوزي)) وسألناه هل من جديد في شأن الجبال الثلاثة ، فقال لنا :

– يا أصحابي .. إليكم ما عرفت : في هذه الجبال دُفِن ويُدْفَن الملوك ، فسوف ترون جثّة ((طوالا)) قد وضعن إلى جنب الملوك الذين ماتوا قبله .. هناك أيضاً نَفَق كبير حفره الرجال الذين كانوا يبحثون عن الحجارة التي تطلبونها ... وفيها أيضاً غرفة سرية لا يعرف الطريق إليها إلا الملك و ((جاجول)) ولكن ((طوالا)) قد مات وأنا لا أعرف عنها شيئا ولا ما تحتوي عليه ... غير أن ثمَّة أسطورة تقول إن رجلاً أبيض كان قد اجتاز الجبال ، وقادته امرأة إلى الغرفة السرية فشاهد ما فيها من

كنوز ، وقبل أن يتمكن من الاستيلاء على تلك الكنوز خانته المرأة ، وقذف به ملك الحين إلى الجهة الأخرى من الجبال . ولم يتخطَ أحد بعده عتبة تلك الغرفة . والآن أعدُكم بأنه إذا استطعتم العثور على هذه الغرفة وكان فيها الحجارة التي تطلبون ..) فقاطعته مشيراً إلى الالماسة الضخمة التي كنت نزعتها من جبين ((طوالا)) وقلت :

– إن الحجرَةَ التي في جبينك هي الدليل والبرهان وقلت :

– قد يكون ذلك .. وكيفما كان الأمر فلكم أن تأخذوا من تلك الحجارة ما تشاؤون إذا وجدتموها وإذا كنتم راغبين في أن ترحلوا عني يا إخوتي فقلت :

– (علينا أوّلاً أن نعثر على الغرفة ...) فقال :

– (ليس غير العجوز ((جاجول)) من يستطيع أن يدلّكم عليها .) فقلت :

– (وهَبْها رفضت ! ...) فقال بلهجة صارمة .

– (إذن تموت .. انتظروا قليلا فسوف أخيّرها بين الموت والحياة .)

وأمر أحد حاشيته باستدعاء (جاجول) فحضرت بعد قليل يجرّها حارسان وهي لا تفتأ تنهال عليهما بالصّراخ والشتائم . فقال الملك :

– (اتركاها .)

فلما خلَصَت من قبضة الحارسين ، ارتمت إلى الأرض وانطوت على نفسها وهي تُجيل في الحاضرين عينين برّاقتين كعيْني الحية الرّقطاء ثم قالت :

– (ماذا تريد مني يا ((إنيوزي)) ؟ حَذَارِ أن تمَسَّني بسوء ، فإني أقضي عليك قضاءً مبرماً في الحال فأنت تعرِف قوّتي وسلطاني ...) فقال إنيوزي بحزم وشجاعة :

– (أيتها الذئبة العجوز ! إن قوّتك وسلطانك لم يستطيعا أن ينقذا ((طوالا)) فأنا لا أخافك .. فأصغى إليّ ، أريد أن تدلّينا على الغرفة التي فيها الحجارة البرّاقة ...) فصَرّت على أسنانها وقالت :

– ((أنا وحدي من يعرف ذلك ولن أقول لأحد .. فعلي أبالستك البيض أن يرحلوا عنا صَفْرَ الأيدي .)) فقال :

– (إذا امتنعت عن القول فسوف أمِيتك على مَهَل !) فقالت وقد تملكها الغضب والخوف :

– (تميتني ؟! حَذَارِ أن تمدّ إليّ يداً .. أتجهل من أنا ؟ لقد عرفت آباءك وآباء آبائك ... كنت هنا عند ما كان هذا البلد بكراً ، وسأكون هنا عندمَا يهرَم ويَشيخ ، فلن أموت إلا إذا قدّر لي الموت ، ولن يجرؤ أحد أن يمَسَّني بسوء ...) فقال :

– (إن الذي لم يجرؤ عليه غيري سأفعله أنا ...)

وأراد أن ينفّذ وعيده ، فأخذ رمحاً وسدّدها إليها ، حتى وصل السنان إلى صدرها ووَخَزَها قليلاً فزعقت وولولت وحاولت أن تنهض فما استطاعت فصاحت مذعورة :

– (لا . لا . حنَانَيْك . سأتكلم إذا بقيت على وتركتني أعيش

لأتمتّع بحرارة الشمس وبمصّ قطع اللحم .. فقال :

– (حسن .. كنت موقناً أني سأعرف كيف أفُكّ عُقْدة لسانك ، فمنذ غد ستذهبين إلى تلك الغرفة في صحْبة ((إنفادو)) و إخوتي البيض .. ولكن إذًا نكثتِ وعدك فسوف تموتين ميتة بطيئة ، لقد تكلمت .)

– (كن مطمئنًّا يا ((إنيوزي)) فما أنا مخْلِفة وعدي .. ها ها ها .. كانت امرأة فيما مضى دليلاً لرجل أبيض ، فقادته إلى هذه الغرفة فلزمه منذ تلك اللحظة سوء المصير ..) ثم أدارت في الحاضرين عينيها البرّاقتين كقطعتين من الجمر واستأنفت حديثها وقالت :

– (وتلك المرأة كانت هي أيضاً تسمى ((جاجول)) ومن يدري؟ فلعلها أنا !...)





١١

كنا بعد ثلاثة أيام مُعَسْكِرين في خيام عند سَفْح ((الجبال الثلاثة)) وقد صَحِبَنا نحن الثلاثة في هذه الرحلة ((فولاتا)) القائمة على خدمتنا و ((إنفادو)) والعجوز ((جاجول)) محمولة على نقّالة ، وبعض الحرس والخدم ، واستأنفنا السير في صباح اليوم التالي وسلكنا طريق سليمان ، وكنا نسير مسرعين يحدونا الشوق إلى الكنوز ، حتى إن حَمَلة العجوز ((جاجول)) ما كانوا يستطيعون أن يلحقوا بنا .

فمررنا في طريقنا على حفرة يبلغ عمقها نحواً من ثلاثمائة قدم ، ومحيطها نحواً من نصف ميل ، وكان الطريق عند تلك الحفرة ينقسم إلى طريقين بحيث يحيطان بها ، ولمحنا في الجانب الآخر من الحفرة ثلاثة

شخوص عظيمة الحجم غريبة الشكل ، فَحَثَثْنا السير إليها مدفوعين بعامل الفضول والتشوّق ، وتبين لنا عند الوصول إليها أنها تماثيل ضخمة من الحجارة ، وعليها نقوش غريبة ، وقد رفعت فوق قواعد لا تقلّ عنها كبراً وضخامة ، وكان اثنان منها يمثّلان شكل رجل، والثالث شكل امرأة عارية يزين رأسها هلال ينحدر جانباه حتى صُدْغَيْها ، أما تمثالا الرجلين فقد نُحتَا بحيث يمثلان رجلين يرتديان الملابس ، ولكن صورتهما كانت على جانب كبير من القبح والفظاعة ، ولما رأينا هؤلاء ((الصامتين)) وهو الاسم الذي يطلقه ((الكوكوانا)) عليهم ، ثار فينا الفضول إلى معرفة الأيدي التي نحتت تلك التماثيل وحفرت تلك الحرفة وشقّت ذلك الطريق .

وبينما كنا نحن الثلاثة نطيل النظر إلى تلك التماثيل ، ونستعين بما نعرف من حوادث التاريخ القديم لاستجلاء أسرارها ، اقترب منا ((إنفادو)) وسألنا أنريد أن ندخل على الفور إلى مدفن الملوك أم نفضل أن نتناول شيئاً من الطعام قبل ذلك ؟ فتغلّب فينا الفضول على الجوع ، ولا سيما أن الساعة لم تكن قد جاوزت الحادية عشرة فأجبنا ((إنفادو)) بأننا نفضّل متابعة السير إلى المدفن ، واقترحت أن نأخذ معنا بعض الزاد فقد يطول مَكْثنا هناك .

ورأينا على بعد خمسين خطوة وراء التماثيل جداراً من الصخور يبلغ ارتفاعه ثمانين قدماً ، وفوق ذلك الجدار سَفْح جبلٍ مكلّلة قمّته بالثلج .

ونزلت ((جاجول)) عندئذ من نقّالها ، وحدجتنا ببصرها وهي تقهقه ،



ثم سارت متّكئة على عصاها إلى ذلك الجدار ، فلحقنا بها حتى وقفت عند باب ضيّق يشبه مدخل منجم من المناجم فالتفتت إلينا وقالت :

– (أيها الرجال البيض هل أنتم على استعداد ؟ إني أطيع أوامر الملك وأريكم مخزن الحجارة البرّاقة) . فقلت :

– (نحن على أتم الاستعداد .) فقالت :

– (اجمعوا شجاعتكم لتقوَوْا على مجابهة ما سترون ، أتأتي معنا يا « إنفادو » يا من خان ملكه ؟) فقطب (إنفادو) حاجبيه ، وقال :

– (كلا . فليس من شأني الدخول في هذا المكان ... وإني أنصحك أن تقلعي عن كلامك القذر وأن تخدمي هؤلاء السادة بكل ولاء وإخلاص . وإني أعهد فيهم إليك وسوف أحاسبك عل تصرّفك معهم ، وحذّارِ أن تفكري في الغدْر بهم ، فلئن فعلت لأميتنّك شرّ ميتة ولو اجتمعت فيك أبالسة السحر أجمعين . أفتسمعين ؟) فقالت :

– (أسمعك يا (إنفادو) وأعرفك تحبّ دائما الغلوّ والتهويل ، فعندما كنتَ صغيراً كنتَ تقذف الوعيد في وجه كلّ إنسان حتى في وجه أمّك ، ولكن اطمئن بالاً فسوف أنفّذ أمر الملك . لقد أطعتُ أوامر عدّة ملوك ، وسيأتي اليوم الذي يُطيعون فيه أوامري . ها ها ها : سوف أتأمل وجوههم مرة أخرى وكذلك وجه (طوالا) . هيّا أقدموا أيها الناس وإليكم المصباحٍ) . وأخرجت من تحت مِعْطفها المصنوع من جلد الحيوان قِرْبة مملوءة زيتاً وفي رأسها فتيلة . وتخطّت الباب المنقور في الجدار وتبعناها في قلق ووَجل .

ومشينا في الرّواق نحو خمسين خطوة ، فلاحظنا أن الظلمة قد خفّت فيه قليلاً ، ثم خرجنا منه إلى قبْوٍ واسع عال ، على شكل قبّة يبلغ ارتفاعها نحو مئة قدم ، وتنيرها خيوط رفيعة من النور تتسرّب من شقوق الصخور ، ورأينا على طول ذلك القبْو أعمدة حسبناها أولاً من الجليد ، ولكنها في الواقع أعمدة من الماء المتجمّد فيا له من منظر جميل !

ولم تتركنا (جاجول) نمتّع الطرف بهذه الرّوائع فإنها كانت حريصة على أن تفرَغ من مهمتها بأسرع وقت ، فعلّلنا أنفسنا أن نقضي في هذا المكان وقتاً أطول عندما نعود إليه ، واضطُررنا أن نُذْعِن لإشارة (جاجول) وأن نسير وراءها . اجتزنا القبو الصّامت فوقنا بنا (جاجول) في نهايته عند بابٍ مربّع الشكل ، فسألتنا بلهجة خطيرة كأنها تريد أن تثير في نفوسنا الفزع والهلع :

– (هل أنتم على استعداد لدخول المدفن ؟) فقال (جود) ساخراً وهو يهدّئ من روع (فولاتا) المتشبّثة بذراعه والمرتعدة الفرائص :

– (بكل تأكيد ! إننا في رحلة ممتعة جميلة !) .

ومشت العجوز (جاجول) تضرب الأرض بعصاها ، وتبعناها واحداً بعد الآخر فوجدنا أنفسنا في غرفة كئيبة المظهر تبلغ مساحتها أربعين قدماً طولاً في ثلاثين عرضاً ، نَقَرَتها يد الإنسان في جوف الجبل ، ولم يكن يتسرّب إليها الضوء تسرُّبَه إلى القبو الواسع الذي تركناه .

لم نَرَ لأول وهْلَةٍ في تلك الغرفة إلا مائدة من الحجر مستطيلة الشكل

تكاد تبلغ طول الغرفة ، ثم رأينا بعد ذلك تمثالاً ضخماً أبيض قد أقيم في نهايتا ، كما أقيمت على جوانبها تماثيل أُخُر بيضاء اللون وأصغر حجماً من التمثال الأول ، ثم لمحنا في وسط المائدة شبح شيءٍ ما .

وكانت عيناي قد تعودتا النظر في العَتَمة ، فعندما تبين لي ذلك الشبح وعرفت ما هو ، جريت هارباً كمن يطارده عِفْريت من العفاريت ، ثم رجعت لأكون إلى جانب أصحابي .

والحقّ إنه منظر يَقُفُّ له شعر الإنسان ، فالتمثال الأبيض القائم في نهاية المائدة كان تمثال الموت في شكل هيكل عظمي ضخم ، وفي يده رمح بيضاء طويلة يَهُمّ أن يطعن بها ، فقلت في نفسي : (تري ما هذا ؟) وسمعت (جود) يقول وهو يشير إلى التماثيل المتجمعة حول المائدة :

– (وهؤلاء من هم ؟ !) وتبعه (السير هنري) يقول وهو يشير إلى الشبح القائم في وسط المائدة :

– (وهذا من هو ؟) فقهقت (جاجول) وقالت :

– (الويل لمن يدخل غرفة الموتى ! ! ها ها ها ! تعال أيها الأبيض وأشارت إلى (السير هنري) وانظر إلى الرجل الذي قتلته !) .

وأمسكت بأصابعها المعرفة سُتْرة (السير هنري) وجذبته إلى وسط المائدة فتبعناها جميعاً . وحدّق (السير هنري) في ذلك الشبح فتراجع قليلا بادِيَ الاضطراب والاشمئزاز فما كان ذلك الشبح إلا جثّة الملك (طوالا) وقد وضع فوق كبتيه رأسه الذي حزّه (السير هنري) بضربة الفأس .



كانت الجثة عارية ، ولكن كان عليها طلاء رقيق لامع ، فحرنا فيما يكون حتى رأينا قطرات من الماء تنسكب من سقف الغرفة وتستقرّ فوق الجثّة ، ثم تنحدر منها إلى ثقب في وسط المائدة فتنزل منه وتشربها الصخور ، ففهمت أن جثّة (طوالا) ستتحول رويداً رويداً إلى جسم متجمّد ، وبهذه الطريقة يحتفظ (الكوكوانا) بجثث ملوكهم المتناثرة حول المائدة .

سئمنا من النظر إلى الجثث والأشباح فطلبت إلى (جاجول) أن تقودنا إلى غرفة الكنوز ، فمرت وراء تمثال الموت وقالت :

– (ها هي ذي الغرفة فأشعلوا المصباح وتفضّلوا بالدخول !) .

ولم تكد تتم كلامها حتى حطّت قِرْبة الزيت على الأرض ، وأسندت ظهرها إلى جدار الغرفة ثم أشعلت فتيلة القربة . وفتّشتُ عن الباب فلم أجد شيئاً سوى حائط صفيق لا منفذ فيه قالت (جاجول) :

– (هذا هو الطريق يا سادة !) فقلت متوعّدا :

– (لا تسخرى بنا أيها العجوز الشمطاء !) فقالت :

– (لست بساخرة ... انظروا ...)

وأشارت بيدها إلى باب حجرىّ في الأرض رأيناه يَرتفع ويَستقّر في تجويف الحائط الذي فوقه كأنه نُقِر خصيّصاً ليحلّ فيه . كان ارتفاع ذلك الباب الحجريّ عشر أقدام ، وسمكه لا يقل عن خمس أقدام ووزنه لا شكّ يزيد على عشرين طناً . ولقد قدّرت أنه يتحرك بطريقة ثقلين

متوازيين بحيث يرتفع هذا إذا هبط ذاك إذا ارتفع هذا ، ولكن أين مكان ذلك الثَقل وكيف يعمل ؟ هذا ما لم نستطيع معرفته ولا العثور عليه .

وبَدَتْ لنا وراء الحجريّ المرتفع هوّة عريضة مظلمة ، فتضاربت فينا العواطف وطارت بنا الأحلام كل مطير . لقد وصلنا أخيرا إلى كنوز الملك سليمان ، أتُراها خرافةٌ وخيالاً أم أن (دا سلفسترا) الكبير قد قال حقًّا ؟ أَنعثر على تلك الكنوز التي تجعل منا أغنى أغنياء العالم أم نعود متعثرين بأذيال الخيبة والسخرية ؟ ! وقطعت (جاجول) علينا تفكيرنا أو بالأحرى تفكيرى أنا وتخطّت عتبة الهوة وقال :

– (ادخلوا يا رجال الكواكب والنجوم ، ولكن أَصْغُوا أولاً لخادمتكم (جاجول) : إن الحجارة البرّاقة التي سترونها قد استخرجت من الهوّة التي استقرّ فوقها (الصامتون) وجمّعت هنا ولا أدرى من جمعها . وأغلب الظن أن الذين جمعوها هنا قد اضطروا إلى الفرار مستعجلين ، فلم يتمكنوا من حملها معهم . ومنذ ذلك الحين لم يدخل عليها أحد إلا مرَّةً واحدة .

ثم تواترت رواية الكنز في سكان هذا البلد جيلاً بعد جيل ولكن ما من أحد يدري مكان الغرفة وسرَّ بابها .....

واتفق لرجل أبيض جاء من وراء هذه الجبال ، وقد يكون هو أيضاً من أبناء النجوم ، أن ينزل ببلدنا فرحّب به ملك ذلك العهد ، ولقد جازف ذلك الرجل فأقبل إلى هذه الغرفة في صحبة امرأة ، واكتشفت تلك المرأة عَرَضا

واتّفاقاً سرّ الباب الذي لا يمكن أن تعرفوه ولو ظللتم ألف سنة تبحثون عنه .

دخل الرجل والمرأة إلى الغرفة ، ورأيا الحجارة البرّاقة ، وملأ الرجل الأبيض منها قِرْبة كبيرة ، فلم هَمَّ بالخروج من الغرفة انحنى على الأرض ليلتقط أيضا حَجَرة برّاقة كبيرة وأطبق عليها كفّه ...) .

وسكتت (جاجول) هنيهة كأنها تريد أن تستريح فقلت لها في صبر نافذ وحبّ استطلاع مضطرم :

– (وماذا جرى للرجل الأبيض (دا سلفسترا) ؟)

فارتعدت (جاجول) عند سماعها هذا الاسم وقالت بصوت أجَشَ :

– (وكيف عرفت اسم الميت ؟ !) لا أحد يعلم ماذا جرى عند ذاك ، فالرجل الأبيض قد تملّكه الرعب فقذف بالقِربْة المملوءة من الحجارة البرّاقة ، ولم يحتفظ إلا بالحجرة التي انترعْتها أيها الرجل الأبيض من جبين (طوالا) فقلت وأنا أجيل الطرف في مدخل الغرفة :

– (وتقولين إنه لم يدخل أحد هذه الغرفة منذ ذلك الحين ؟ !) فقالت :

– (لا لم يدخلها أحد ، ولكن جميع الملوك عرفوا سر الباب وفتحوه ، غير أنهم لم يدخلوا الغرفة قط ... ففي قبائلنا رواية تقول : (إن من يدخل هذه الغرفة يموت عند ظهور القمر في دورته التالية) ... كما مات الرجل الأبيض في الكهف الذي وجدته فيه عند الجبل أيها الرجل الأبيض !

ها ها ها ! إن ما أرويه لكم هو الحقيقة بعينها .) .

ساءلت نفسي كيف تعرف هذه العجوز كل هذه الأشياء فاستمرّت العجوز تتحّدث وتقول :

– (ادخلوا أيها السادة فإن قلتُ صدقاً فسترون في الأرض القِرْبة المملوءة بالحجارة البراقة ، وإن كانت رواية قبائلنا هي أيضاً صادقة فلا تلوموا إلا أنفسكم ... ها ها ها ! !) .

ورفعتْ بيدها المصباح ودخلت في الرواق المفضي إلى الغرفة ، فترددت أنا في الدخول وشجعني قول (جود) :

– (هيا ندخل ولا نأبه لكلام هذه العجوز المجنونة !) .

دخل (جود) تتبعه (فولاتا) وهي ترتعد من رأسها إلى أخمص قدميها ، ودخلنا وراءه ، وكانت العجوز تنتظرنا على بعد خطوات في ذلك الرواق المحفور في قلب الصخر فقالت :

– (انظروا يا سادة ! إن الذين جمعوا هنا الكنز واضطُرُّوا إلى الهرب مسرعين كانوا ينوون أن يسدّوا مدخل الغرفة فيما لو تمكّن غيرهم من العثور على سرّ الباب ، ولكنهم لم يجدوا الوقت اللازم لذلك .) .

وأرتنا (جاجول) عدداً من الحجارة المربّعة وضع بعضها فوق بعض في وسط الرّواق بنيّة سدّه ، وعدد آخر في جانبيه لاستعماله عند الحاجة . والتفتّ إلى (فولاتا) فرأيتها قد ازدادت خوفاً وهلعاً وارتجافاً فقالت لنا إنها مريضة فلن تقوى على السير معنا إلى أبعد من ذلك ، ورَجَتْ منّا أن

تنتظرنا في ذلك المكان ، فأجلسنا على السّور الذي لم يتم بناؤه ، ووضعنا إلى جانبها سلّة الزاد وتابعنا المسير .

وما هي إلا خمس عشرة خطوة خطوناها أيضاً في ذلك الرّواق حتى وجدنا أنفسنا إزاء بابٍ من الخشب عليه تصاوير دقيقة ، وكان الباب مفتوحاً على مصراعيه ، مما يدلّ على أن الذي مرّ منه لآخر مرة نِسيَ أن يُقْفِلِهَ أو أعوزه الوقت لإقفاله .

ولمحنا على عتبة الباب قِرْبَةً من جلد الحيوان يلوح أنها محشوّة بالخصي فعكست (جاجول) على القِرْبة نور المصباح وقالت :

– (إيه إيه أيها الرجال البيض ! هل صَدَقْتَكم القول ؟ إن الرجل الأبيض قد هرب ناجياً بنفسه بعد أن رمي القِرْبة فهي الدليل على صدق ما قلت ...) .

فانحنى (جود) ليرفع القِرْبة فكانت ثقيلة ، وعندما أمسك بها سمع لها رنينٌ خاصٌ فقال (جود) بصوت مخنوق :

– (ما أظنّ إلا أنها مملوءة جواهر !) فقال (السير هنري) بصبرٍ ذاهب :

– (لنتقدّم ... وأنت أيتها العجوز هاتي مصباحك ....) .

وأخذ المصباح واجتاز عتبة الباب ، ووضع المصباح فوق رأسه ، فلحقنا به ناسين كيس الجواهر المطروح على الأرض ، وها نحن الآن في غرفة كنوز الملك سليمان !!! .

وكانت غرفة منحوتة في الصخر لا تزيد مساحتها على عشر أقدام مربّعة ، فرأينا عند أحد جدرانها كَوْمة تبلغ السقف من أنياب الفِيَلة ، فقلت في نفسي لعلّ الملك سليمان قد أخذ من هذه الأنياب ما صنع به عرشه العاجيّ الذي لم يكن له مثيل في جميع الماليك .

وفي الجدار المواجه رأينا صفاً عالياً يتألف من نحو عشرين صندوقاً مدهونة باللون الأحمر ، فصِحْت في رفاقي :

– (ها هي ذي الجواهر ...... هاتوا المصباح !) .

فاقترب (السير هنري) وأدنى المصباح من الصندوق الأول وكان غطاؤه محطّماً ، ولا شك أن (دا سلفسترا) هو الذي حطّمه ، فمددت يدجي وأدخلتها من فتحة الصندوق ، وعدت بها مملوءة لا من الجواهر بل من قِطَع نفوذ ذهبيّة غريبة الشكل ، وعليها كتابة يلوح أنها كتابة عبرانية ... فقلت لرفاقي :

– (كيفما كان الأمر فلن نعود بوفاضٍ خاوٍ ، فلابدّ أن في كلّ صندوق من هذه الصناديق العشرين ما يقرب من ألفَيْ قطعة ، وإنها لثروة لا بأس بها !) .

فقال (جود) :

– (أتظن أن (دا سلفسترا) قد جمع كل الجواهر واللآلئ في ذلك الكيس ؟) .

وفطنتْ (جاجول) من ملامحنا إلى ما يجول بخواطرنا ففهمت كلامنا وقالت :

– (إذا كنتم مصمّمين على رؤية الحجارة البراقة فانظروا إلى تلك الزاوية ففيها حفرة تحتوى على ثلاثة صناديق : اثنان منها محتومان والثالث مفتوح .)

فتوجه (السير هنري) بمصباحه إلى حيث أشارت ، ولم يكد يصل حتى صاح فينا مدهوشاً : (تعالوا ... تعالوا ...)

فهُرعنا إليه فوجدنا ثلاثة صناديق حَجَرية ؛ اثنان مقفلان بغطاء من الحجر أيضاً كما قالت العجوز ، والثالث مفتوح وغطاءه مسند إلى الحائط ، فانحنينا عليه نفحَص ما فيه فَبَهرَ النور المشعّ منه أبصارنا فلم نميّز ما فيه ، واستطعنا بعد قليل أن نرى الصندوق مملوءاً إلى ثلاثة أرباعه بِقِطَعٍ ضخمة من الألماس البكر . فالتقطت عدداً منها وأخذت أقلّبه في يدي وألْمس جوانبه ، فوثقت كل الوثوق أنها دُرَر حقيقية ، فاصفرّت وجوهنا ، وأخذ كلٌّ منا يتطلع إلى وجه صاحبيه كأننا نفرٌ من المتأمرين يَهْمَون بارتكاب جريمة . ودوّي عندئذ صوت (جاجول) قائلة :

– (ها هي ذي الحجارة البراقة التي تحبّونها هذا الحب الشديد أيها الرجال البيض .. إنها كمية عظيمة تفوق ما ترغبون وتشهون ... خذوها داعبوها بأصابعكم ... كلوا منها ... ها ها ها ! اشربوا منها ... ما لكم شُدِهْتم عند رؤية جانب صغير من هذه الحجارة ؟ افتحوا الصندوقين الآخرين ففيهما ما هو أعظم وأنفس .) .

واستمعنا لما قالت ، وانكبَبْنا على الصندوقين نعالجهما حتى

فتحناهما ، فإذا هما مملوءات بالحجارة الكريمة من صنف أصفى وأسمى ، ولم نلمح ونحن في ذهولنا ودهشتنا أن العجوز (جاجول) قد رمقتنا بنظرة قاتلة وتسلّلت تسلُّل الأفاعي إلى خارج الغرفة ، واجتازت الرواق إلى بابه الحجريّ . ولم نصْحُ من ذهولنا إلا عند ما سمعنا صوت استغاثة يهيب بنا قائلا :

– (إليّ ... إليّ ... المعونة ! المعونة ! الباب يهبط ... آه ! آه! لقد ضربتني بسكينها ...) .

فجرينا إلى الرّواق ورأينا في ضوء مصباحنا أن الباب الحجريّ يهبِط إلى الأرض وهو منها على بُعْد ثلاثة أقدام فقط ، ورأينا على مقربة منه (فولاتا) و (جاجول) في صراع مستميت يتدفّق الدم من الأولى وعي مع ذلك ممسكة بخناق العجوز التي تضطرب في يديها اضطراب القطّ المتوحّش ... آه ! لقد خارت قوة الفتاة المسكينة فسقطت لا حرَاك بها ، ونـجت العجوز من قبضتها فأخذت تزحَف زَحْف الأفْعُوان لتخرج من الفتحة الضيقة الباقية بين طرف الباب وأرض الرواق ... لقد فاتها الوقت ... آه يا إلهي! لقد سحقها الباب في اللحظة التي هرعنا إليها ...

حدث كلّ هذا في ثوان قليلة فاتّجهنا إلى (فولاتا) فإذا العجوز كانت قد ضربتها في صدرها ضربة سكين قاتلة ، وقدرت أن روحها ستفيض بعد قليل ، فلما رأتني قالت لي بنفس متقطع :

– (إني أموت يا سيدي ! قل سيدي (تقصد جود) إني ...

إني أحبّه ... وإني أموت سعيدة فما كان لمثله أن يزحم حياته بمخلوقة مثلي ... قل له ... ولكن لا يا سيدي لا تقلْ له شيئاً ... سوى إني أحبه ...) .

وكان (جود) قد اقترب من الفتاة وأخذ يحتضنها بذراعيه مواسياً ملطفاً آلامها فلفظت الروح بين يديه .... فنهض والدموع تنحَدِر من عينيه فقال له (السير هنري) :

– (لا تحزن عليها يا صاحبي ...) فاقل (جود) مدهوشاً :

– (ماذا تقول يا سيدي ؟ !) فقال (السير هنري) :

– (أقول إنك تستطيع أن تلحَق بها بعد قليل .... ألا ترى أننا قد دفنَّا أحياء ؟ !) .

كانت فجيعتنا بالفتاة المسكينة قد أنستنا الحال الراهنة ، فاستيقظنا من غَفْوتنا على كلام (السير هنري) ، وأدركنا الخطر الجسيم الذي وقعنا فيه . فالباب الحجريّ قد عاد إلى مكانه وليس مَنْ يعرف سرّه غير تلك العجوز المدقوقة العظام تحته ، ولا سبيل إلى تحطيمه إلا بقوّة الديناميت ومن أين لنا الديناميت ! ؟

استسلمنا لحظة إلى التفكير في هذا المصير الفظيع الذي ينتظرنا ، فانتشلنا منه (السير هنري) وهو يقول بصوت محبوس :

– (يجب أن نعمل فالمصباح سينفّد منه الزيت بعد قليل فهيّا نجدّ في البحث لعلنا نعثر على السرّ الذي يرفع الباب ويُنْزله .) .

فركضنا نحن الثلاثة إلى الباب ثم إلى الجدران نتلمّس فيها مكمَن السرّ فذهب بحثنا سُدّى ، وعدنا إلى غرفة الكنز أو إلى المقبرة التي سَنُدْفَن فيها ونحن أحياء ، ورأيت في طريقنا سلّة الطعان التي كنا تركناها إلى جانب المسكينة (فولاتا) فتناولنا منها بعض الزاد فانتعشنا قليلاً وتابعنا البحث والتنقيب في تلك الغرفة الجهنميّة على أمل أن نـجد فيها منفذاً يُنقذنا من ذلك القبر . ولكن هيهات ... وزاد موقفنا حرجاً تراقص النور في المصباح فقد كاد زيته ينضب فسألني (السير هنري) :

– (عزيزة " كاترمان " كم الساعة الآن ؟) فقلت :

– (الساعة السادسة ، ولقد دخلنا إلى القبو في الساعة الحادية عشر ولسوف يستبطئنا (إنفادو) فيسعى إلى إنقاذنا ...) فقال (السير هنري) :

– (ولكنه يجهل سرّ الباب ... وهَبْه وجد الباب فأنَّى له أن يفتحه بدون معرفة السرّ ... إن خمس أقدام من الحجر تفصلنا عن عالم الأحياء فلست أرى يا أصحابي إلا الاستسلام لمشيئة القدرة ! إن كثيرين من الباحثين عن الكنوز لقوا حتفهم في سبيلها ، فليضف القدر أسماءنا إلى القائمة التي أعدها عن ضحايا الجشع الإنساني .) .

وأرسلت فتيلة المصباح دَفْقَة كبيرة من النور وكانت دفقة الوَداع ، ثم انطفأ المصباح وغمرتنا ظلمة حالكة ... ومرّت علينا ساعات طوال كنا فيها عُرْضَةً للهواجس نندُب حظّنا ونُنْحِي باللائمة على أنفسنا الطمّاعة. وفي وسط ذلك الظلام والصمت المخيف سمعت (السير هنري)

يسأل (جود) قائلا :

– (كم عود ثقاب بقِيَ في العلبة يا عزيزي (جود) ؟ فقال :

– (ثمانية أعواد .) فقال :

– (أشعل واحداً منها لنعرف كم الساعة الآن .) .

فأشعل (جود) عوداً ونظرت في ساعتي فإذا نحن في الساعة الخامسة ، فاقترحت أن نتناول شيئاً من الطعام ، فأكلنا وطلب (السير هنري) إلى (جود) أن يذهب إلى الباب الحجريّ و يصرخ بمِلْء صوته مستغيثاً فقد يسمعنا أحد من الخارج ففعل (جود) وعاد إلينا يلهَث من التعب . وقضينا النهار كلّه في تفكير وسأم وضجر إذا صحّ أن نسمي الظلمة نهارا ، وعندما أشعلت عود الثقاب لأعرف في أي وقت نحن كانت الساعة السابعة فخطر لي خاطر وقلت لصاحبي :

– (كيف يكون الهواء غير فاسد في قَبْوٍ كالذي نحن فيه مسدود الجوانب محكم الإغلاق ؟ !) فقفز (جود) من مكانه وقال :

– (ما أصْوَبَ رأيك ! فلابدّ من تسرّب الهواء إلينا من مكان ما وإلا كنا اختنقنا ، و إخاله يتسرب إلينا من الباب فما رأيت في حياتي باباً أحكم إغلاقاً من هذا فنبحث ...) .

واستسلمنا نحن الثلاثة إلى البحث عن ذلك المتنفّس وقد نفخ فينا الأمل روحاً جديداً . وبعد نحو ساعة صاح فينا (جود) :

– (تعالوا ... تعالوا !) فخففنا إليه ونحن نتلمّس الطريق فقال لي :

– (يا عزيزى (كاترمان) ضع يدك هنا مكان يديَ وقل لي ألا تُحِسّ بشيء ؟) فقلت :

– (أحس بنفخة هواء) فقال :

– (والآن اسمعا .) .

ونهض وأخذ يضرب بقدمه الأرض التي كان واقفاً عليها ، فسُمع لضرباته رنين الشئ الأجْوَف ، فاستبشرنا خيراً فأخرجت عود ثقاب وأشعلته بيد مضطربة لأنه لم يبق معنا غير ثلاثة عيدان ، فرأينا أننا في زاوية من زوايا الغرفة ، ولمحنا في ضوء عود الثقاب حلقة من الحجر في أرض الغرفة ، فكمّم الأمل أفواهنا فما نطقنا بحرف ولا صحنا مستبشرين ، فأخرج (جود) سكينة وأخذ يحفر حول الحلقة ويزيل عنها التراب حتى بأن مِقْبضها ، فحاول بما أوتي من عزم وقوة أن يجذبها إليه فلم يُفْلح ولا أفلحتُ أنا بعده ، فتقدم (السير هنري) وأمسك بالحلقة وأمسكنا نحن بخصره فَشَدَّ وشددناه واقتلع من الأرض لَبِنَة مربعة دخل بعدها الهواء فملأ خياشيمنا فصاح :

– (أشعِل عود ثقاب يا " كاترمان " واحرص على أن لا ينطفئ .) .

سبحانك اللهم ! لقد رأينا في ضوء عود الثقاب الدرجة الأولى من سلم حجريّ ، فهممنا بالنزول منه فاستوقفني (السير هنري) وطلب إليّ أن آتي بما بقي لدينا من طعام وشراب فقد نحتاج إليهما . فذهبت لآتي بالسلة فمررت بصناديق الألماس وقد كانت بالأمس سبب كآبتنا

وهلاكنا ، فنظرت إليها فلعب بي الشوق والطمع فملأت منها جيوبي فقد تباعد الأيام بيني وبينها وصحت في رفيقيّ :

– (ألا تأخذان شيئاً من الألماس معكما ؟ أما أنا فقد ملأت جيوبي !) فسمعت (السير هنري) يقول :

– (لعنة الله على الألماس وساعته فلن أنظر إلى خياله ما حييت !) .

نزلنا السلّم وكان يتألف من خمس عشرة درجة ، ولما وصلنا إلى نهايته أشعلت العود قبل الأخير من عيدان الثقاب التي كانت معنا ، فرأينا أن السلم قد أفضى بنا إلى رواق فسلكناه ، وأحسسنا أننا قد انتهينا إلى رواق آخر فخفنا شرَّ العاقبة ، وخشينا أن نكون وقعنا في أروقة لا نهاية لها ولا منفَذ ، فوقفنا نستريح وكان (جود) قد تقدّمنا قليلا فسمعناه يهتف بنا بعد قليل :

– (أقْدِما ! أقدما ! لقد عثرت على جدول ماء .)

فسارعنا إليه ودهشنا من رؤية ذلك الجدول من الماء يسير في بطن الجبال ، فشربنا منه حتى ارتوينا ، ولزمتنا الحيرة ثانية فيما نحن فاعلون ، ووجدنا إلى ناحية من الجدول رواقاً جديداً ، فاقترح (السير هنري) أن نسلكه فإما متنا فيه ، وإما نفذنا منه إلى غيره وهكذا حتى يقضي الله أمراً– كان مفعولا .

وسار (السير هنري) أمامنا وسرنا وراءه نتخبط في الظلام ، وكان يمشي بخطوات فسيحة حتى ابتعد منا فإذا به يصيح فينا :

– (أقْبِلا يا صديقي أقْبَلا وقولا لي : أهذا الذي أراه هو نور حقاً أم داخلتني لوثة من الجنون ؟ !)

فأقبلنا عليه ورأينا النور ينحدر إلينا من كوّة صغيرة ، فمشينا إليها وكان الرواق كلما تقدمنا في السير يضيق ثم يضيق حتى أصبح كأنه وجار ثعلب ، فاضطُررنا إلى الزحف على بطوننا حتى خرجنا من ذلك الجُحْر ووجدنا أنفسنا في الهواء الطلق تحت سماء مرصعة بالنجوم فلم نتمالك عن البكاء فرحاً وسروراً .

وبعد أن استرحنا قليلا استلقينا إلى العشب واستسلمنا للرقاد ، فصحونا عند الفجر واجتزنا بعض التلال والمنحدرات حتى وصلنا إلى الطريق الكبير فسلكناه ، وشاهدنا بعد قليل إلى جانب من جوانبه ، بعض الخيام وأمامها جماعة من الناس يوقدون النار ، فمشينا إليهم ولما أصبحنا على قاب قوسين منهم ركض إلينا كبيرهم ، فلم يكد يرانا حتى ارتمى إلى الأرض وهو يصيح صيحات الخوف والهلع ، فعرفته وناديته قائلا :

– (" إنفادو " يا " إنفادو " لا تخف فنحن أصحابك !)

فنهض وجرى إلينا وعيناه لا تزالان جاحظتين من الخوف وقال :

– (آه أيها السادة .... أصحيح أنكم عُدْتم من بين الأموات ؟)

وأقبل علينا ذلك المحارب القديم وهو ينتحب من الفرح ...



١٢

قضينا عشرة أيام بعد ذلك الصباح الذي لن ننساه ونحن نلقي من (إنيوزي) كل رعاية ومودة ، وما فكرنا قط في أن نعود إلى غرفة الكنز فقد كان ذكرها أو التفكير فيها يبعث فينا الرَعب والهَلَع ، ولكننا حاولنا مرة أن نعود إلى الكوّة التي خرجنا منها فلم نـجدها ، لأن المطر كان قد محا آثار أقدامنا ، وربما كانت الرياح والتراب والمطر قد اشتركت جميعها في سدّ تلك الكوة ، كما أنه كان هناك عدة كوًي وفتحات فليس من اليسير أن نعرف من أيها خرجنا إلى عالم بني البشر .

وفي عشَّية اليوم الذي عيّناه للرحيل ذهبنا نودّع (إنيوزي) ونطلب إليه أن يبعث معنا ثُلَّة من الحرس توصلنا إلى ما وراء الجبال . فنظر

إلينا بعين مغرورقتين بالدموع ، وقال :

– (أَقَرَّ قراركم على أن تتركوني يا أصحابي ؟ هل ارتكبت ذنباً استحقّ عليه منكم هذا القِصاص ؟ إن الحجارة البراقة أغلى لديكم وأكرم منزلة من صاحبكم " إنيوزي " ؟) ثم سكت قليلا واستأنف حديثه قائلا :

– (إذن لابدّ من الفراق ، ولابدّ من أن أعيش بقلب معذّب ،فإن رحلتم فقدتكم إلى نهاية العمر ، فمن المحال أن تصل إلّ أية أنباء منكم ... لتكن مشيئتكم ، ولكن أرجو أن تقولوا لبني جنسكم إنه ما من أحدٍ يستطيع أن يجتاز تلك الجبال ، فإن اجتازها اغتالته الصحاري .... وكيفما كان الأمر فلن أسمح لأحد أن يدنس بلادي ويتعاطى فيها تجارة الأسلحة والمسكرات .... وما دمتم قد عوّلتم على الرحيل فسيصحبكم عمي " إنفادو " وسيجتاز بكم هذه الجبال من طريق خفيّة يعرفها هو فالوداع يا أصحابي ويا سادتي ويا إخوتي من الرجال البيض !) .

ونهض وشدّ على أيدينا بعين دامعة فودّعناه وانصرفنا .

وعند انبلاج الفجر خرجنا من عاصمة (الكوكوانيين) وخرج الأهلون كلهم بين رجال ونساء وأطفال يودعوننا وينثرون علينا الأزهار ، فحيونا أجمل تحيّة وحيّيناهم ، وابتعدنا عن العاصمة يصحبنا " إنفادو " وكوكبة من رجاله فقادنا من الطريق التي يعرفها ، ومشي معنا يومين كاملين حتى اجتزنا تلك الجبال ، ووصلنا إلى بداية الصحاري فدلّنا على طريق أخرى ستفضي بنا بعد يوم أو يومين الواحة الخضراء القائمة

في وسط القفار ، ولا يصعب علينا بعد ذلك أن نقطع القسم الباقي من الصحراء إلى أرض الزولو .

ودّعنا " إنفادو " وداعاً حاراً ، وأدى لنا رجالة التحيّة الجميلة فشكرناهم جميعاً وسرنا في طريقنا يتبعنا خمسة من الرجال يحملون المُؤَن والزاد ، ومكثنا نسير حيناً ونستريح حيناً آخر حتى لمحنا في ظهر اليوم الثالث من مسيرنا أشجار الواحة فتنفَسنا الصُّعَداء وما هي إلا ساعات قلائل حتى كنا نمشي على العشب ويشنف آذاننا خرير المياه ...

وفي اليوم التالي تقدّمتُ عن القافلة قليلاً ، وكنت أمشي على ضفّة جدول ماء يخرج من الواحة ويغور في رمال الصحراء ، فلم أتمالك من أن أفْرُك عيني لأتأكدّ من هذا الذي رأيته ...

رأيت على بُعْد عشرين خطوة مني كوخاً مصنوعاً من الأعشاب والقصب ، فدهِشتُ من وجود كوخ في تلك البقعة ، فما كدت أصحو من دهشى حتى رأيت باب الكوخ يفتح ويخرج منه رجل أبيض ذو لحية سوداء ، يرتدي بجلد الحيوان . فمشي إليّ وهو يعرج قليلا ثم وقف فحدق كلٌّ منا في الآخر صامتاً ذاهلاً وكان (السير هنري) و (جود) قد لحقا بي فصحت فيهما :

– (بحق السماء إلا قلّما لي أرجلٌ أبيض من أرى أم أنا مجنون ؟)

– فأجال رفيقاي نظرهما في الرجل ، وعلى حين فجأة صاح الرجل صيحة عظيمة وأقبل إلينا . ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات



حتى سقط فاقد الرّشد ، فسارع إليه (السير هنري) وارتمي عليه يفحص نبضه فما عتّم أن صاح :

– (يا لعدالة السماء ! إنه شقيقي " جورج " .) .

وعلى أثر تلك الضجّة التي أثرناها رأينا باب الكوخ يفتح ثانية ويخرج منه رجل يرتدي هو أيضاً بجلد الحيوان ، ويحمل في يده بندقية فسارع إلينا ولما رآني صرخ قائلا :

– (ألا تعرفني يا سيّدي ؟ أنا " جيم " الصيّاد ! لقد فقرت الورقة التي أعطيتنها لأسلّمها إلى سيّدي ، وها نحن أولاء نعيش في هذا المكان منذ سنتين .) وارتمى عند قدميّ يبكى وينتحب من الفرح .

وكان الرجل ذو اللحية السوداء قد عاد إليه رشده ، فنهض واقفاً وكان هو و (السير هنري) لا ينبِسان ببنْت شَفَة كمن فقدا النطق ، ومما لا شكّ فيه أن الرجلين كانا قد نَسِيا في تلك اللحظة أسباب الشّقاق بينهما ، فقطع (السير هنري) حبل الصمت وقال يخاطب شقيقة :

– (لقد ظننتك ميتاً يا شقيقي الحبيب ... بحثت عنك في جميع جبال سليمان وها أنا ذا ألقاك معلّقاً في الصحراء كصقر من الصقور .)

فقال أخوه بصوت متردّد كمن نسي الكلام بلغته الأصلية :

– (وأنا أيضاً حاولت منذ سنتين أن أذهب إلي جبال سليمان ، غير أنني أصِبْت عند وصولي إلى هذا المكان بصخرة حطمت ساقي فما عدت أستطيع متابعة المسير إلى الأمام ولا الرجوع إلى الوراء .)

فاقتربت عندئذ أنا منه وقلته :

– (كيف حالك يا سيّد " نفيل " ؟ ألا تذكرني ؟) فقال :

– (يا للعجب ! هذا " كاترمان " وهذا " جود " أليس كذلك؟ اعذروني يا سادة فإني أشعر بدوار في رأسي ... فعقلي أضعف من أن يتحمل كل هذه الطاقة من السعادة دفعة واحدة !) .

وفي السماء بينما كنا نتناول الطعام حول النار روي لنا (جورج كورتيس) قصته والحوادث التي مر بها ، وكان أمله الوحيد أن يعرج على الواحة بعض الرجال فينقلوه إلى أرض الزواو ومنها يعود إلى بلاده .

ولما فرغ من قصته روي (السير هنري) قصتنا نحن وما لاقينا من أهوال وأخطار ، ولما رأيت (جورج) بعض الدرر التي معي تبسم ، وقال :

– (لم تضيعوا وقتكم عبثا ....) فضحك (السير هنري) وقال :

– (كل هذا يخص "كاترمان " و " جود " فقد اتفقنا على أن يقستما هما الاثنان ما نقع عليه من مغانم) .

وخطر لي عندئذ أن نشرك منا (جورج) في اقتسام الدرر فقد لقي في سبيل البحث عنها الهول والإعياء والمرض ، فأطلعت (جود) على هذا الخاطر فأقره ، ولكننا لم نعرضه على (جورج) إلا بعد مدة طويلة اضطررنا فيها إلى بذل جهد كبير في أقناع (السير هنري) بقبول العرض حتى اقتنع به وقبله ، فلم يجد شقيقة (جورج) بدا من القبول .

وعند الصباح استأنفنا السفر عبر الصحراء ، وكانت رحلتنا شاقة

مضنية فما كان (جورج) يسير معنا مسافة قصيرة حتى تنزّ عليه الأوجاع والآلام في ساقه المحطومة ، فنحمله ونسير به في وسط ذلك الجحيم الملتهب .

وصلنا أخيرا بعد جهد ومشقة إلى حيث كنا تركنا سلاحنا وحاجاتنا. وبعد ستة أشهر كان رفقائي قد عادوا إلى إنـجلترا وكنت أنا في منزلي الصغير بمدينة (دربان) حيث أكتب هذا الكتاب .

والآن وقد فرغت من الكتابة أبعث بتحية الوداع إلى كل من صحبني في هذه الرحلة الفريدة العجيبة .

حاشية : في اللحظة التي كتبت فيها الكلمة الأخيرة جاءني عامل البريد يحمل إلى رسالة من إنـجلترا . إنها من (السير هنري) وهذا نصها :

(عزيزي " كاترمان "

كتبت إليك كلمة عاجلة في البريد الأخير أخبرتك فيها أننا نحن الثلاثة أنا و " جود " و " جورج " قد وصلنا بسلامة الله إلى إنـجلترا ، ولو كنت رأيت " جود " في اليوم التالي لوصولنا لما عرفته ، فقد عاد إلي سابق عهده من التبرج والتأنق والتجمل .

لقد ذهبت أنا و " جود " كما اتفقنا إلى الجوهري " ستريتر " وحملنا إليه الألماس ليقدر قيمته ، وتراني أتردد أن أطلعك على تقديره فإنه رقم ضخم جدا ، وكيفما كان الأمر فما هو بالرقم الأخير فالجوهري

مدهوش من ضخامة الدرر وصنفها وفرندها الصافي ، ولما عرضت عليه أن يشتريها اعتذر وقال إنه لا يملك المال الكافي ونصحني أن أبيعها قليلا قليلا حتى لا أزحم الأسواق فبعته بضع درر منها بمبلغ مائتي ألف جنيه .

ألح عليك أن تحضر إلى إنـجلترا لتهتم أنت نفسك بهذا المسائل ، ولا سيما إذا كنت لا تزال مصمما أن تهدي لأخي " جورج " ثلث ما وقعت عليه من هذه الجواهر . أما " جود " فيشغله حب التألق حب التأنق عن حب العمل ولكنه والحق يقال لا يزال حزينا كئيبا على الفتاة (فولاتا) .

لابد أن تعود إلينا يا صديقي القديم ، وأن تشتري منزلا تسكن فيه فقد حقت لك الراحة بعد جهادك الطويل في الحياة . وعلى مقربة من منزلي دار جميلة للبيع ، وإني لعلى يقين بأنها تصلح لك كل الصلاح ... فتعال وخير البر عاجلة ، وإن كنت لم تفرغ من تسجيل ما مر بنا من حوادث ومغامرات فإنك تستطيع إتمامه على ظهر السفينة التي ستنقلك إلينا ، فإذا ركبت البحر حالما تتلقي هذه الرسالة أمكن أن تصل إلينا قبيل عيد الميلاد ، فتقضي العيد معنا وترى " جود " و " جورج " وترى كذلك ابنك " هاري " فهو ضيفي منذ نحو ثمانية أيام وإني لشديد الإعجاب به .

أكتفي بهذا وإلي اللقاء القريب وسلمت .

لصديقك المخلص

هنري كورتيس

حاشية : إن نابي الفيل الذي قتل المسكين " كيفا " قد علّقتهما اليوم في
البهو فوق قرني الثور اللذين كنتَ أهديتهما لي فتألّف منها
جميعاً منظر رائع . أما الفأس التي ضربتُ بها عنق " طوالا"
فقد وضعتها فوق مكتبي ...

هـ . ك .))

اليوم يوم الثلاثاء وهناك سفينة ستبحر يوم الجمعة إلى إنجلترا ، ولست أجد خيراً من أن ألبي طلب (السير هنري) وأبحر إلى إنجلترا لأراك يا ولدي (هاري) ولأهتّم بنشر هذه القصة لأنها مهمّة لا أوَدّ أن اعتمد فيها على غيري ...



رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢١٧٠٤
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6873-9

٥٣ / ٢٠٠٥ / ٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع)

أولادنا

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام .

صدر منها :

دار المعارف